مرتضى مطهري

التكامل الإجتماعي للإنسان

دار الهادي

مكتبة نرجس PDF
www.narjes-library.blogspot.com

التكامل الاجتماعي للإنسان

تأليف

الشيخ مرتضى المطهري

دار الهادي
بيروت لبنان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الرابعة

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ١٧ ٥٥٠٤ / ٠١ - ٨٩٦٣٢٩ / ٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب ٢٨٦ / ٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com URL: http: //www. daralhadi.com

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلقه وخاتم رسله محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

يعتبر الشهيد المُطهري بحق، من أعاظم المفكرين المسلمين في العصر الحاضر لما يملكه من عمق فكري وأصالة وتأسيس كبير للفكر الإسلامي القرآني وفهم دقيق للنصوص القرآنية تتعدى حدود الموروث الذي كان ينغلق على فهم القرآن من زاوية واحدة.

والمطهري بعد ذلك، ثائر إسلامي ومجدد قاتل على أكثر من جبهة، فقد قاتل ضد التخلف والجمود والتحجر كما قاتل أيضاً ضد الانحراف والالحاد، وكان في قتاله يحمل من نور القرآن وتعاليم الإسلام مشاعل تهدي الأجيال الصاعدة نحو الطريق الصحيح والسليم.

وإذا كان الشهيد دستغيب قد مارس تأثيره الروحي الكبير في النفوس لما كان من كلمات عميقة وبسيطة وواضحة في آن واحد من أجل إثارة الجانب الخير في نفس الانسان، فإن المطهري كان في نفس الوقت يحرك في عقل الإنسان المسلم ليدفعه نحو التفكير السليم والوعي ليدفعه في نهاية الأمر نحو التسليم بالعقيدة الإسلامية العظيمة

ويمتاز أسلوب المطهري بالبساطة والوضوح ونعني بالبساطة طرح الموضوع بالشكل الذي يستطيع إدراكه السامع والقارىء على السواء متجنبا الغموض إلا بمقدار ما تقتضيه طبيعة البحث الفكري والفلسفي.

وبين يدي القارىء العربي مجموعة من المحاضرات ألقاها الشهيد على مستمعيه في أواسط عام ١٩٧٢، وهي محاضرات مهمة تناولت بل أخذت على عاتقها الإجابة على مجموعة من التساؤلات التي يوجهها المسلم إلى نفسه، أو يوجهها إليه الآخرون.

وهي تنقسم إلى قسمين، القسم الأول تكفّل بمناقشة موضوع الهدف في الحياة وما فيه من تفرعات تناولها الشهيد على شكل العناوين التالية:

● هدف الخلقة وبعثة الأنبياء حيث بحث من خلالها وناقش النظريات المتعددة حول هذا الموضوع عارضا في نهاية الأمر النظرية الإسلامية بهذا الخصوص.

● جذور الأخلاق الفردية والاجتماعية. وقد استعرض فيها النظريات المتعددة حول نشوء الأخلاق.

● العقيدة.. والرؤية الكونية.

● الإيمان وكمال الإنسان، وهو بحث ممتع وعميق، حيث يتعرض الشهيد إلى بيان معنى الكمال ومناقشة النظريات المتعددة بهذا المجال.

● دراسة النظريات المختلفة عن كمال الإنسان على ضوء النظرية الإسلامية وهي آخر القسم الأول.

أما القسم الثاني فهو مخصص لدراسة التكامل الإنساني، حيث استعرض في المحاضرة الأولى مفهوم التكامل.

وفي المحاضرة الثانية تعرّض إلى دراسة مستقبل البشرية على ضوء النظريات المختلفة.

وفي نهاية كلا القسمين توجد مجموعة من الأسئلة وجهها المستمعون لمحاضراته فأجاب عليها بصورة مختصر. وهي مثبّتة في نهاية كل قسم.

وغني عن القول ما لهذه المحاضرات من أهمية كبيرة في إغناء الثقافة الإسلامية، لما احتوته من عمق وجدّة، عمق في التناول والتشخيص، وجدّة في العرض والأسلوب والمعالجة.

فإلى قراء العربية نقدّم هذا الجهد المتواضع خدمة للثقافة الإسلامية، وللشهيد الكبير الذي ضحىٰ بحياته في سبيل عقيدته.

والحمد لله رب العالمين.

المترجم
١٩٩٣/٦/١٦

القسم الأول

هدف الحياة

المحاضرة الأولى

هدف الخلقة وبعثة الأنبياء

محاضرة ألقيت بتاريخ ١٣ / ٧/ ١٩٧٢ م

إن واحدة من المسائل المهمة التي يجب أن تُدرس هي مسألة «الهدف من الحياة» فهذه المسألة كانت على طول التاريخ تواجه الإنسان، وهي تتلخص بالسؤال التالي: ما هو الهدف من الحياة؟ أي من أجل أي شيء يحيا الإنسان؟ أو بعبارة أخرىٰ أكثر واقعية: ما هو الهدف الذي يحيا من أجله الإنسان، ومن جهة أخرىٰ إذا أردنا بحث الموضوع من وجهة نظر إسلامية فيجب أن نصوغ السؤال بالشكل التالي: ما هو الهدف من بعثة الأنبياء؟.

وللإجابة على ذلك نقول إن من المسلم به هو أن الهدف من بعثة الأنبياء ليس مفصولاً ولا معزولاً عن الهدف من حياة الأفراد الذين بُعِث إليهم الأنبياء، لأن الأنبياء إنما بُعثوا لكي يسوقوا البشر نحو الأهداف المعيّنة.

ثم لو تقدّمنا قليلاً نحو الأمام فسوف نصل إلى قضية أخرىٰ وهي تتلخص بالسؤال التالي: «ما هو الهدف من الخلقة»؟ ماذا تتضمن خلقة الأشياء وخصوصاً الإنسان من أهداف؟.

إن تعبير «ما هو الهدف من الخلقة» يمكن أن يكون في بعض الأحيان بهذا المعنىٰ: ما هو هدف الخالق من خلقة الأشياء؟ وبمعنىٰ آخر ما هو الهدف الذي دفع الخالق وحرّكه ليقوم بعملية الخلق؟. وبهذا المعنىٰ فإن الخالق لا يمكن أن يكون له هدف من الخلق، لأن الهدف بمعنىٰ الدافع والعامل والمحرّك للفاعل، وهو الشيء الذي أوجب على الفاعل أن يقوم بالفعل وبعدم وجوده فإنه لن يقوم بالفعل.

ونحن لا نستطيع أن نقول بهذا المعنىٰ عن الله، أي أنه يُريد تحقيق

هدف من خلال فعله، فالهدف الذي يحرّك الفاعل بمعنىٰ الشيء الذي بعث على أن يكون الفاعل فاعلاً، وهو شيء يريد الفاعل أن يصل من خلاله إلى هدف معيّن، وهذا يستلزم النقص في الفاعل.

وبعبارة أخرىٰ، فإن امتلاك مثل هذا الهدف يصدُق على الفاعل بالقوة والمخلوقات، وهو لا يصدُق على الخالق، لأن امتلاك مثل هذا الهدف يرجع إلى محاولة الحصول على الكمال، أي أن الفاعل يحاول بفعل شيء الحصول على شيء لا يملكهُ.

ولكن في أحيان أخرىٰ يكون المقصود من هدف الخلقة، ليس غاية وهدف الفاعل بل هدف الفعل.

وغاية الفعل هي أننا لو أخذنا أي عمل، فأن يتحرك نحو هدف وتكامل، وإنه خُلق من أجل هذا التكامل، فهذا الفعل خُلق لكي يصل إلى مرحلة متكاملة، وليس من أجل أن يصل الفاعل من خلال فعله إلى الكمال، ومعنىٰ هذا أن يتحرك العمل نفسه نحو التكامُل وهذا يعني أننا إذا علمنا أن سر الخلق هو أن كل فعل يتحرك نحو التكامل منذ أول وجوده ففي هذهِ الحالة فإن للخلقة غاية.

وهي كذلك، ذلك أن كل شيء يوجد يملكُ كمالاً انتزاعياً وقد خُلق ليصل إلى كماله الانتزاعي.

وبشكل عام فإن سر هذا العالم وقانونه هو أن كل شيء يبدأ ناقصاً.. أو يشرع من نقص ويتحرك نحو التكامل، من أجل أن يصل إلى الكمال اللائق به والذي يُمكنه الوصول إليه.

إذاً فإن مسألة «ما هي الغاية في خلقة الإنسان» تعود على معرفة «ماهية الإنسان»، وما هي القابليات الكامنة فيه، وما هي الكمالات التي بإمكانه الحصول عليها، حيث يجب البحث عن كل الكمالات التي بإمكان الإنسان الحصول عليها خصوصاً وأنه قد خلق من أجلها. ومن الطبيعي فإن الحكمة بهذا الاعتبار؛ وهي العمل الهادف؛ لا فرق بينها وبين الغاية وبناءً على هذا،

فليس من الضروري أن تبحث الغاية والهدف من خلقة الإنسان بشكل مستقل، بل أن هذه المسألة تتعلق بماهية الإنسان والاستعدادات والقابليات الكامنة فيه، وبعبارة أخرىٰ، ولأننا نتناول البحث من خلال جانبه الإسلامي وليس العقلي الفلسفي، لذا يجب أن نتعرف على رؤية الإسلام للإنسان، وكذلك الإنسان الذي يؤمن بالإسلام، وما هي استعداداته للوصول إلى الكمالات التي خُلق لها.

إن بعثة الأنبياء جاءت من أجل تكامل الإنسان، والشيء الذي يتفق عليه الجميع هو أن بعثة الأنبياء إنما جاءت من أجل الأخذ بيد الإنسان وإعانتهُ، لأن الواقع يؤكد أن هناك خللاً ونقصاً في حياة الإنسان بحيث لا يستطيع الإنسان فرداً أو الإنسان جماعة أن يملأ ذلك الخلل والفراغ بقوة الأفراد العاديين، وإنما يستطيع أن يفعل ذلك بمساعدة الوحي الإلهي.

إذاً فالهدف من بعثة الأنبياء هو إيصال الإنسان إلى التكامل والغاية من الخلقة.

وكذلك فإن ما يجب أن يكون هدف حياة كل فرد من خلال رؤية فردية ليس محلاً للبحث بهذه الصورة الكُليّة، وجواب ذلك بشكل عام وهو أننا ماذا يمكننا أن نكون وما هي الاستعدادات والقابليات التي نملكها بالقوة لكي نحولها إلى الفعلية؟ ليكون ذلك هدف حياتنا.. ولكن هذا المقدار من البحث كلّيٌ مغلق..

ويجب أن نرىٰ هل تعرّض القرآن إلى أبحاث تفصيلية أكثر حول هدف الإنسان أم لا؟ وهل أوضح السبب الذي من أجله خلق الإنسان أم لا؟ وهل تعرّض لبعثة الأنبياء ولأي شيء كانت؟ وهل قال من أجل أي شيء يعيش الإنسان؟.

إننا غالباً ما نقول وبأُفقٍ كلّي، وهو صحيح؛ إن الانسان خُلق من أجل الوصول إلى السعادة، وإن الله لا يريد أن يكسب من خلقه شيئاً وإنه خلق الإنسان لإيصاله إلى السعادة، غاية الأمر أن الإنسان يمثّل مرتبة من الوجود

تفرض عليه أن ينتخب طريقه بصورة اختيارية، وأن هداية الإنسان تكليفية تشريعية. وليست تكوينية ولا غريزية جبرية، ولذلك فإن الإنسان بعد أن درج على الطريق فإنه أحياناً يحسن الاختيار وأحياناً أخرىٰ يُسيء الاختيار ﴿ **إنّا هديناه السَّبيلَ إمَّا شاكراً وإمَّا كفوراً** ﴾[1].

* * *

النظريات المختلفة حول سعادة الإنسان

١ ـ القوة في العِلم والإرادة

وهذا أمرٌ صحيح، ولكن القرآن في أي شيء يرىٰ سعادة الإنسان، فمن المتعارف قولهم: إن الهدف من خلقةِ الإنسان، والشيء المرهونة به سعادة الإنسان، وكذلك الهدف من بعثة الأنبياء هو أن يكون الإنسان قوياً من ناحيتين هما: «العِلمُ» و «الإرادة». . فالله خلق الإنسان ليعلم من جهة، حيث إن كمال الإنسان متعلق بمقدار ما يعلمُه، ومن جهة أخرىٰ خلقهُ قادراً قوياً بحيث يستطيع أن يفعل الذي يريد، وتكون له إرادة قوية يستطيع معها أن يفعل الذي يريده.

وبناءً على هذا فإن الهدف من خلق حبة الحنطة، أو القوة الكامنة فيها هو أن تتحول إلى شُجيرة الحنطة، وإن ما يُسعد الماشية هو أن تتناول علفها وتسمَن. ولكن الشيء الكامن في قابليات الإنسان واستعداداته أكبر من تلك المسائل، وذلك هو أنه «يعلم» و «يستطيع» وكل من يكون أكثر علماً وأكثر قوة يكون أكثر قرباً من غايته وهدفه الإنساني.

٢ ـ الاستفادة أكثر من مواهب الطبيعة

أحيانا يقولون إن الهدف من حياة الإنسان هو تحقيق السعادة، بمعنىٰ

---

(١) سورة الإنسان الآية ٣.

العيش بصورة أفضل في هذه الحياة والاستفادة الأكثر من المواهب الطبيعية، وبمعنىٰ عدم التعرّض للآلام والمآسي سواء من قبل عوامل الطبيعة أو من قبل أبناء جنسه، وإن السعادة ليست سوىٰ ذلك، إذاً فإن الهدف من خلقنا في هذهِ الدنيا هو الاستفادة أكثر من وجودنا، ومن الأشياء الخارجية، أي أن نحقق «أكبر حدّ من اللّذة» وأن يكون لنا «أقل حدٍّ من الألم».

ويضيفون على ذلك قولهم إن الأنبياء إنما جاؤوا من أجل ذلك الهدف؛ وهو أن تكون حياة الإنسان مقرونة بالسعادة.. أي تحقيق الحدّ الأكبر من اللذّة والحد الأقل من الألم، وإن الأنبياء حينما طرحوا مسألة الآخرة فإنهم إنما فعلوا ذلك لتعلّقها بالحياة الدنيا، لأنه إنما وضّحوا طريق السعادة للبشرية أو أن السير في هذا الطريق يستلزم المكافأة، ومخالفة ذلك يستلزِم أيضاً الحساب والعقاب، وإن الآخرة مثل أي جزاء آخر تتبع الوضع، فهي تبع للدنيا حتىٰ لا تكون القوانين المعمول بها في الدنيا من باب العبث واللغو، لأن الأنبياء لم يكونوا يمثلون قوة تنفيذية في الدنيا ولم يستطيعوا في هذهِ الدنيا إعطاء الثواب أو إنزال العقاب، وإنما أوكل ذلك إلى الآخرة لكي يجزىٰ الذين عملوا الصالحات جزاءهم الحسن ويجزىٰ الذين أساؤوا عقابهم الذين يستحقّون.

هدف الخلقة من خلال القرآن الكريم

ولكننا لا نلاحظ في القرآن الكريم إلى شيء من تلك الأقوال، وأن الأمر ليس كذلك، حيث جاء التصريح في القرآن ﴿ **وما خلقتُ الجنَّ والإنْسَ إلا ليعبدون** ﴾[1]، ومن الممكن أن يكون إدراك معنىٰ ذلك صعباً علينا، إذ ما هي الفائدة التي يجنيها الله من عبادتنا؟ وما هي الفائدة التي يحصل عليها البشر حين يكون مخلوقاً يعبد الله؟ وعلى كل حال فإن القرآن قد ذكر هذا الأمر بصراحة تامة وهو أن العبادة غاية الخلق.

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦.

كما أن القرآن ذكر أن الآخرة خلقت لغاية هي عكس ما يدّعيه القائلون بالعبثية، حيث يقول ﴿ **أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وإنكم إلينا لا ترجعون** ﴾[1]، والعبث هو الشيء الذي لا غاية من وراءه، وهو في مقابل الحكمة، وفي الآية القرآنية تأكيد لهذه الحكمة، وكأن القرآن يريد أن يجعل هذا السؤال يتحرك في ذهن الإنسان: أليس هناك حكمة في خلقكم؟ أوَ ليسَ هناك غاية حكيمة؟ وهل أن هذا الخلق تمَّ عبثاً؟ ثم يتساءل القرآن ﴿ **وإنكم إلينا لا ترجعون؟** ﴾ وهذا يعني أن الخلق يكون عبثاً إن لم يُعقبُ بالرجوعِ إلى الله جل جلاله.

لقد كرر القرآن الكريم الربط والاستدلال ومن خلال آياته الكريمة أن الخلق حقٌّ وليس باطلاً، وأنها «عملية الخلق» ليست لغواً ولا لعباً، وأن واحداً من الأدلّة القرآنية حول القيامة هو ما يصطلح عليه بالدليل «اللِمّي» وهو يتلخص في أن هذا الكون له خالق، وهذا الخالق والرب لا يعمل عبثاً، وإن فعلهُ حق، وليس باطلاً، وهذا الخلق له خالق حكيم، وأنه «أي الخلق» سيرجع يوماً إلى الله، وفي الحقيقة فإن هذهِ القيامة والعودة إلى الله هي التي تجيب على الأسئلة المتعلقة بخلق هذا العالم.

وفيما يتكرر الحديث في القرآن حول العودة إلى الله، فإننا لا نجد في القرآن أي إشارة إلى أن الإنسان خُلِق من أجل أن يعلم أكثر أو يكون قوياً أكثر لتحقق الخلقة أهدافها عندما يكون الإنسان عالماً، قوياً، بل إن الإنسان خُلِق ليعبد الله، وعبادة الله بحدِّ ذاتها هدفٌ، لأن الإنسان إذا كان عالماً واستزاد من العلم، وقوياً واستزاد من القوة، ولكن إذا لم يتضمن ذلك عبادة الله من خلال معرفته التي هي مقدمة العبادة، فإنه (الإنسان) لا يكون قد تقدم خطوة نحو الهدف من الخلق، وأنه من خلال رؤية القرآن سوف لن يكون سعيداً، إن القرآن يؤكد على أن بعثة الرسل والأنبياء جاءت من أجل إيصال

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١١٥.

البشر إلى السعادة، وغاية السعادة بعقيدتهم هي عبادة الله.

وفي الإسلام وبناء على هذا المعنىٰ فإن الهدف الأساسي من الحياة ليس سوىٰ المعبود، أي أن القرآن يريد أن يصنع الإنسان ويمنحه هدفا وعقيدة، والهدف والعقيدة التي يريد الإسلام أن يمنحها للإنسان هي عقيدة الإيمان بالله فقط، وأن كل الأشياء الأخرىٰ إنما هي أشياء ثانوية، وليست أصيلة ومستقلة وليست هدفاً أساسياً.

وفي الآيات القرآنية التي تصف بعض الناس بالكمال، أو تتحدث على لسان بعض الناس الكاملين، فإنها تقدّمهم على أنهم أدركوا جيدا الهدف من هذه الحياة.. وأنهم عملوا وتحركوا على قاعدة هذا الهدف، فالقرآن يقول وعلى لسان إبراهيم (ع) ﴿ **وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذي فَطَرَ السَّمواتِ والأَرض حنيفاً وما أَنَا مِنَ المشركين. إِنَّ صَلاتي ونسكي ومَحْيايَ ومماتي لله رب العالمين...** ﴾[1].

وهذا التوحيد في القرآن ليس توحيداً فكرياً، أي أن الإنسان من ناحية فكرية فقط يعتقد بوحدانية خالق وموجد هذا العالم، بل إنه كذلك اعتقاد بمرحلة إنسانية خاصة، أي أن الإنسان يعتقد أن ليس لهذا العالم أكثر من خالق واحد، ومن جهة أخرىٰ وعلى مستوىٰ الهدف فإن ما هو خليق بالإنسان أن يجعله هدفا نهائيا له هو الله فقط، ومن الطبيعي أن تكون بقية الأهداف تنبعث وتتفرع عن هذا الهدف الأصلي والأساسي، وبمعنىٰ آخر فإن بقية الأهداف هي ليست من نوع الأهداف المستقلّة بالأصالة بل إنها تابعة ونابعة عن ذلك الهدف الأول. وسوف نبحث هذا الأمر: وهو أن الهدف من الخلقة هو العبادة.

وفي مورد تحديد هدف الإنسان الكامل من حياته يقول القرآن الكريم وعلى لسان إبراهيم (ع): ﴿ **إن صلاتي ونُسُكيْ ومَحياي ومماتي لله رب**

---

(١) سورة الأنعام الآية ٧٩.

العالمين. . . ﴾[1] وهنا يوجّه القرآن الكريم الأنظار للاهتمام بالإخلاص، فالعبد المخلص لا يحكم على وجوده ولا يسيطر عليه سوىٰ التفكير بالله جل جلاله.

وحول سبب بعثة الأنبياء (ع) فإن للقرآن تعبيرات مختلفة ومتعددة حول ذلك، فهو يقول ﴿ **يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنهِ وسِراجاً منيراً** ﴾[2] وهنا يأخذ النبي بالتعبير القرآني موقع الشاهد والمبشر والنذير والمبلّغ لرسالات الله، وهذا بنفسه غاية وسبباً. ويقول القرآن في مكان آخر ﴿ **ليُخْرِجَهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النور** ﴾[3] إذاً، فهناك تعبيرات واضحة جداً في دعوة الخلق والإنسان للاهتمام بمعرفةِ الله سبحانه وتعالى وأن الأنبياء هم حركة الوصل بين الإنسان والخالق لتحقيق هذهِ المعرفة.

العدالة الاجتماعية، هدف آخر لبعثة الأنبياء

وفي آية أخرىٰ، صرح القرآن بوضوح تام أن الهدف من بعثةِ الأنبياء هو لتحقيق العدالة الاجتماعية، حيث يقول ﴿ **لقد أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ والْميزانَ لِيَقومَ النّاسُ بالقِسْطِ وأَنْزَلْنا الْحَديدَ فيه بأس شديد ومنافعُ لِلناس** ﴾[4].

وفي الآية بيان عن أن الأنبياء جاؤوا بأدلة وشواهد واضحة ومعهم الكتاب وميزان «هل المقصود به القانون أم شيئاً آخراً» ليقوم الناس بالقسط ويلتزموا بالعدل ليشيع العدل بين الناس.

وبناء على هذا فما هو الهدف الذي جاء من أجله الأنبياء؟ إن الآية السابقة تؤكّد على أن الهدف هو إقامة العدل بين الناس، إذاً فكل الأنبياء

---

(١) الآية السابقة.
(٢) الآية السابقة.
(٣) سورة الأحزاب الآيتان ٤٥ و ٤٦.
(٤) سورة الحديد الآية ٢٥.

جاؤوا من أجل إقامة العدل، وهنا اختلفت فلسفة بعثة الأنبياء.

هل الهدف الأساسي من الخلقة والبعثة هو معرفة الله أم العدالة الاجتماعية؟ وهنا يمكن افتراض أمرين، الأول هو أن الهدف الأصلي هو إقامة العدل بين الناس، ولكن كما استدلّ ابن سينا وأمثاله من أن إقامة العدل الواقعي بين الناس لا يمكن إقراره إلا بوجود قانون عادل بينهم.. والقانون العادل لا يمكن أن يضعهُ البشر لسببين «وأن خالق البشر هو الذي يجب أن يضع هذا القانون»، الأول أن البشر لا يمتلك القدرة الكاملة على تشخيص الحقيقة «خصوصاً وأنه لا يتمكن» من التخلي عن دوافعه وأغراضه، والثاني أن القانون الموضوع من قبل البشر لا يملك ضمانة التنفيذ لأن الطبيعة البشرية تنمو نحو تقديم الذات على الغير.. فهو مع القانون ما دام يحقق له المصلحة وهو ضد القانون ما دام لا يحقق له النفع، وبناءً على هذا فلا بدّ للقانون من أن يمتلك وضعاً خاصاً بحيث يخضع البشر تجاهه، وليس هناك من طريق للحصول على مثل هذا القانون سوى من الله سبحانه وتعالى حيث يُحسّ الإنسان في أعماق ضميره ووجدانه بالخوف من مخالفته..

إذاً ومن أجل تحقيق العدالة فلا بدّ من وجود القانون العادل، والقانون العادل لا بدّ أن يكون من الله جل شأنه.

ومن أجل أن يكون القانون العادل موضع التنفيذ.. فلا بد من وضع الثواب والعقاب من قبل الله.. ومن أجل أن يؤمن البشر بهذا الثواب والعقاب.. فلا بد لهم من أن يعرفوا الله. وعلى هذا الأساس فإن معرفة الله أصبحت مقدمة وبوسائط متعددة من أجل إقامة العدل. وبناءً على ذلك ومع وجود هذه الآية فإن ما يجب أن نقوله هو أن الهدف الأصلي لبعثة الأنبياء هو إقامة العدل بين الناس وأن الدعوة لله هي هدف ثانوي من أجل معرفة واضع القانون والخوف منه، وإلا فإن مسألة الدعوة لله ومعرفته لا أصالة لها.

إذاً، فنحن في الواقع أما ثلاثة أنواع من الأدلّة ويجب أن نعرف أيها الخليق بالقبول. الدليل الأول هو الذي قلناه، وهو لا يملك أنصاراً، والذين

قالوا بمثل ما قال به ابن سينا، فإنهم لم يقولوا ذلك بعنوان التأييد لقوله مائة بالمئة. . وحسب هذا المنطق فإن الهدف من بعثة الأنبياء هو فقط إقامة العدل بين الناس والحياة السعيدة في هذهِ الحياة الدنيا وأن مسألة معرفة الله والإيمان بالمعاد إنما هي مقدمات خصوصاً وأن العدل لا يمكن إقراره ما لم يعرف الناس ربهم ويؤمنوا بالمعاد. . إذاً فالإيمان مقدمة للعدالة.

أما المنطق الثاني فهو عكس الأول تماماً، وذلك لأنه يرىٰ أن الهدف الأصلي هو معرفة الله، أي أن عبادة الله هي الهدف الأصلي، والتقرب إليه هو الهدف الأصلي، وأن العدالة هدف ثانويٌّ، وذلك لأن الإنسان ومن أجل أن يفوز بالمعنويات في هذه الدنيا فلا بدّ له من أن يعيش في هذهِ الدنيا، وأن حياة الإنسان غير ممكنة إلا في وسط اجتماعي، وأن الحياة الاجتماعية لا يمكن أن يُكتب لها الاستقرار إلا بوجود العدالة، إذاً فالقانون والعدالة إنما هي مقدّمات لكي يتمكن الإنسان أن يعبد الله في هذهِ الدنيا براحة بال، وبغير ذلك فإن العدالة لا قيمة لها.

وبناء على هذا فإن القضايا الاجتماعية التي نقول بأهميتها اليوم ونحاول إقامتها وتنظيمها على أساس العدل. كانت من أهداف الأنبياء. . ولكنها لم تكن أهدافاً أساسية بل هي أهدافٌ ثانوية. . وهي مقدمة لأهداف أُخرى.

وهناك وجهة نظر ثالثة في هذا المجال وهي تقول: ما هي ضرورة أن نؤمن حتماً بوجود هدف للبعثة والخلقة والحياة وأن نؤمن بأن هناك هدفاً أصلياً والبقية أهدافاً ثانوية؟.

فمن الممكن أن نقول إن الأنبياء كان عندهم هدفان، وأنهم بعثوا لتحقيق هدفين مستقلّين وليس هناك هدف هو مقدمة لهدفٍ آخر، الأول ليكونوا حلقة وصل بين الله والبشر، لكي يعبُد البشر ربّهم، والثاني إقامة العدل بين الناس، وأن أيّاً من الهدفين ليس مقدمة لهدفٍ آخر، وأن كلاهما هدف أصليٌّ، وقد رأينا أن القرآن الكريم قد ذكر كلا هذين الهدفين، فما هو

المانع من الاعتقاد بأصالة كلا الهدفين؟.

ومثل هذا الأمر موجود في المسائل الأخرىٰ التي وردت في القرآن الكريم. وعلى سبيل المثال فقد جعل القرآن مسألة تزكية النفس ركيزة مهمة، فقد جاء فيه: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَساها ﴾.. فهل أن تزكية النفس هدف مستقلٌ حسب رؤية الإسلام؟ هل أن تزكية النفس هدف أم مقدمة، من رجل حياة الإنسان وبعثة الأنبياء وخلق الإنسان؟ وإذا كان مقدّمة. فلأي شيء؟ فهل هو مقدمة لمعرفة الله والاتصال به وعبادته؟ أم هي مقدمة لإقامة العدالة الاجتماعية وأن الأنبياء جاؤوا لتحقيق العدالة الاجتماعية، ومن أجل تحقيق ذلك فإنهم كانوا مجبرون على وصف بعض الصفات البشرية التي لا تتناسب مع الحياة الاجتماعية، بالرذيلة، ووصف بعض الصفات الأخرىٰ التي تتناسب مع الحياة الاجتماعية، بالفضيلة، وأنهم قالوا إن على الإنسان أن يتخلىٰ عن الصفات التي هي ضد الأخلاق الاجتماعية مثل الحسد، والكِبر، والعُجب، والأنانية وعبادة هوى النفس، وأن يتحلىٰ ببعض الصفات الحسنة الأخرىٰ التي تساعد على تحقيق العدالة الاجتماعية، مثل: الصدق، الأمانة، الإحسان، المحبة، التواضع و..، أو أن يقال إن تزكية النفس إنما هي صدق أصليٌ بغض النظر عن كل ذلك.

والآن فما هو الذي يجب أن يُقبَلْ؟.

ومن وجهة نظرنا فإن القرآن لا يرضىٰ الشرك بأي وجه من الوجوه، فهو كتابٌ للتوحيد بكل معنىٰ الكلمة، وكتابٌ للتوحيد بمعنىٰ أنه لا يقول بالمِثل لله «توحيد ذاتي» ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيء ﴾[1]، وهو كتاب للتوحيد بمعنىٰ أنه يقول إن كل الصفات والأسماء الحسنىٰ الكاملة هي لله ﴿ لَهُ الأَسْماءُ الْحُسْنى ﴾[2] و ﴿ وَلِلَّهِ المَثَلُ الأَعْلى ﴾[3]، وهو كتاب توحيد بمعنىٰ أنّ

---

(١) سورة الشورى الآية ١١.
(٢) سورة طه الآية ٨.
(٣) سورة النحل الآية ٦٠.

وجود الله لا يقبل الكثرة، وهو كذلك توحيد بمعنى أنه يرفض وجود أي فاعل في مقابل الله، وأن كل فاعل إنما هو في طول قوة الله وهذا هو معنى لا حول ولا قوة إلا بالله.

وهو كذلك التوحيد بمعنى أن كل الكائنات ليس لها هدف أساسي مستقلاً ونهائياً سوى الله، ومن ذلك الإنسان. فهو في حركته التكوينية وحركته التكليفية الشرعية لا يعرف هدفاً غير الله.

إن هناك فرقاً كبيراً مثل الفرق بين الأرض والسماء بين الإنسان الساعي وراء الإسلام وبين الإنسان الساعي وراء المدارس الفلسفية البشرية. فعلى الرغم من أن هناك الكثير من الأمور التي يقول بها الإسلام تقول بها الفلسفات الوضعية.. ولكن ليس من خلال منظور واحد ورؤية واحدة.. فالإسلام يوجه الإنسان دائماً نحو مسائل التوحيد الله. وعلى سبيل المثال، فقد قلنا سابقاً إن الفلسفة البشرية وصلت إلى حد القول إن هناك قوانين ثابتة لا تتغير هي التي تحكم العالم، والقرآن أيضاً يقول ذلك ولكنه يرجع ذلك إلى الله ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تبديلاً ولن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ (١).

والقرآن يقبل أصل السعادة بل إنه يهتمُّ بها فوق العادة ولكنها لا ترقى بالمفهوم القرآني إلى مستوى الهدف النهائي. أو أن السعادة مقدمة لكي يعيش الإنسان في هذه الدنيا بسعادة. السعادة التي ندركها نحن بل إن الحياة السعيدة في هذه الدنيا تتحصل تحت ظل التوحيد بمعنى أن يكون الإنسان خاضعاً لله.

الله فقط الذي يمنح السعادة البشرية

الإنسان في القرآن موجود لا يستطيع أحدٌ أن يمنحهُ السعادة سوى الله. وبمعنى آخر فإن الإنسان موجود مخلوق لا يستطيع أحدٌ أن يدرك حاجته

---

(١) سورة فاطر الآية ٤٣.

للسعادة، ويمنحهُ الرضا الكامل ويشبعُه سوى الذات الإلهية ﴿ **الَذِّينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمُ بذكر الله ألا بذكر الله تطمئنُّ القُلوب** ﴾[1] .

وهذا من عجائب التعبير القرآني ومعاجزه.. حيث ذكر هنا أمرٌ إثباتيٌّ وهو أن قلوبهم تطمئن بذكر الله، وتطمئن قلوب أناس آخرين بذكر أشياء أخرىٰ، ولكن القرآن ينفي تلك الأشياء الأُخرىٰ، فـ «ألا» جاءت لتنبّه، وتحذّر ولتُعلن خبراً مهمّاً، وكلمة «بذكر الله» جاءت متقدمة، وهي بتعبير الأدباء «تقديمٌ ما هو حَقّهُ التأخير يُفيد الحصر» لأن القاعدة في اللغة العربية أن يأتي ما يتعلق بالفِعْلِ، والجار والمجرور بعد الفعل، وبناءً على هذا، فإن معنىٰ الجملة هو: إن اطمئنان القلوب يحصل فقط بذكر الله ونسيان ما عدا ذلك، وأن الله هو الذي يمنح الاطمئنان للقلب المضطرب، وكل الأشياء الأخرىٰ إنما هي مقدمات، أي أنها أول الطريق وليس نهايته، ولذلك فإن العبادة هي كذلك حيث يقول الله في القرآن ﴿ **أقم الصلاة لذكري** ﴾[2]، فالهدف هو الذكر.. ويقول ﴿ **إن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمُنكر** ﴾[3] حيث يذكر هنا خصوصية الصلاة، ثم يوضح أهدافها ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾[4] .

فالإسلام يرىٰ أن الإنسان خلق من أجل العبادة والتقرّب إلى الله ومعرفته ومن الطبيعي أن يمتلك الإنسان نتيجة لذلك القدرة.. ولكن العلم والقدرة مقدّمات وليست أصل، وكذلك تزكية النفس.. فهي كلها أهداف ثانوية.

* * *

---

(١) سورة الرعد الآية ٢٨.
(٢) سورة طه الآية ١٤.
(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٥.
(٤) سورة العنكبوت الآية ٤٥.

المحاضرة الثانية

جذور الأخلاق الفردية والاجتماعية

محاضرة أُلقيت بتاريخ ٢٥/ ٧/ ١٩٧٢

يحتاج الإنسان في حياته الخاصة والاجتماعية إلى سلسلة من الأهداف غير المادية، وسوف لن نبحث هنا الحاجة للأهداف والقيم المعنوية وغير المادية للفرد لأنها مثلاً ليست مورداً لحاجتنا، فلعلها تتوضح من خلال بحوثنا الاجتماعية.

ولكن المسلّم به أن كل مدرسة اجتماعية بحاجة إلى مجموعة من الأهداف المشتركة للأفراد، ذلك أن انعدام مثل هذهِ الأهداف المشتركة سيجعل الحياة الاجتماعية بمعناها الواقعي مستحيلة، خصوصاً وأن الحياة الاجتماعية تعني التعاون، وهذا يحصل في مساحة الأهداف المشتركة عادة، وإذا لم يكن هناك هدف مشترك فليس من الممكن حصول التعاون بين الأفراد، والهدف المشترك أكثر عمومية من الهدف المادي والمعنوي، فمن الممكن أن يكون الهدف المشترك لمجموعة من الأفراد هدفاً مادياً مثل الشركات التجارية والصناعية التي تؤسس برؤوس أموال مشتركة، وأن يكون صاحب رأس المال شخصاً واحداً وبقية الشركاء يكون عليهم أداء العمل.

إذاً فالهدف المشترك أكثر عمومية، ولكن المجتمع البشري لا يمكن إدارته عن طريق إنشاء شركة.. بمعنىٰ أن الحياة الاجتماعية لا يمكن تأسيسها على أساس أنها شركة كبيرة، وهذا غير ممكن من وجهة نظرنا نحن طبعاً، وإلا فإن هناك من يفترض صحة ذلك.

الآراء المختلفة حول جذور الأخلاق الاجتماعية

١ ـ نظرية راسل: مصلحة الفرد

إن الأخلاق عند السيد راسل مبنيّة على هذا الأساس فهو لا يعترف بوجود أي جذر للأخلاق الاجتماعية ما عدا المصلحة الفردية.

وهو يعتقد أن الأخلاق الاجتماعية هي نوع من العقود والاتفاقات التي يبرمها الأفراد مع بعضهم الآخر خصوصاً وأن كل الأفراد يدركون أن المحافظة على مصالحهم ومنافعهم إنما يتم من خلال مراعاة مصالح الآخرين كذلك.

واضرب لذلك مثلاً، فأنا على سبيل المثال أرغب في أن أستحوِذ علىٰ البقرة التي هي ملك لجاري وهذه الرغبة تعبيرٌ عن طبيعة بشرية، ولكنني إلى جانب ذلك أدرك أن تنفيذي لتلك الرغبة سوف يدفع بجاري إلى القيام برد فعلٍ يستهدف معه إعادة البقرة إلى حوزته، وهكذا سيقوم الجار الآخر بنفس الفعل، وبدلاً من أن أحصل على الفائدة فسوف أُمنىٰ بخسارة كبيرة، وعند ذلك فسوف أقول إن المصلحة تقتضي أن أحترم حقك وأنظر إلى البقرة على أنها ملكك لتبقىٰ بقرتي ملكاً لي.

وبناءً على هذا فإن راسل يعتقد أن أصل الأخلاق الاجتماعية هي في المحافظة على المصالح الفردية. وإليها يعود المنشأ والجذور الواقعية لاحترام البعض لحقوق الآخرين مثل حالة الشركاء في مصلحة معينة حيث يحترم كلٌّ منهم حق الآخرين، لأن مصلحة كل فردٍ منهم ترتبط بشكل مباشر بالتعاون فيما بينهم.

الردّ على النظرية

وللرد على ذلك نقول:

إن علاقات اللصوص مبنيّة كذلك على هذا الأساس، فعندما يتفق ويتعاهد مجموعة من اللصوص على السرقة وقطع الطريق، فإنهم يبنون اتفاقهم على أساس التعادل ورعاية كل منهم لحقوق الآخرين، لأن كلاً منهم يعلم أنه لا يمكنه بمفرده القيام بذلك العمل.

وبعبارة أخرىٰ ولأن كل واحد منهم يحتاج إلى الآخر، ولسبب هذه الحاجة إلى الآخرين فإن كل واحد منهم يحترم حقوق الآخرين الذين معه.

وعلى هذا الأساس فقد قلنا إن شعارات راسل تختلف عن فلسفته، فشعاره، يحمل المحبّة للإنسان، ولكن فلسفته تقتلع جذور المحبة الإنسانية، خصوصاً وأنه يعتقد أن المصلحة هي أصل الأخلاق الاجتماعية، وأن هذه الأخلاق هي التي تحكم سلوك الفرد وتصرفاته بحيث يرىٰ مصلحته ترتبط بالتعاون مع الآخرين، وأن يخاف دائماً من رد فعل الآخرين.

إن مجموعة من الأفراد عندما يكونوا بنفس القوة والقدرة فسوف يراعي أحدهما الآخر، ولكن إن اطمأن شخص أو طرف إلىٰ تفوقُه المطلق على الآخرين من ناحية القوة والقدرة وأن الآخرين من الشركاء ضعفاء إلى درجة لا يستطيعون معها الدفاع عن أنفسهم، فليس هناك من سبب يدعوه لكي يراعي هذهِ الأصول الاجتماعية، بل لماذا يراعي ذلك؟ فعلىٰ سبيل المثال لو تقابل طرفان قويان يتمتعان بنفس القوة والقدرة مثل نيكسون[1] وبريجينيف[2] فإن كلاً منهما يحسب حساب الطرف الآخر وليحصل كلٌ منهما على مصلحته، ولكن إذا واجَه كلٌ منهما أمة مستضعفةً فليس هناك من سبب أو مبررٍ إذاً يدعوه ليحسب حساب تلك الأمة.. وعلى هذا الأساس فليس من المعقول بل لا معنىٰ لاعتراض راسل على ما تفعله أمريكا في فيتنام ووصفه لذلك بأنها أعمال غير إنسانية، ما معنىٰ الإنسانية هنا؟ وما هو الذي يمنع أمريكا من القتال؟.

وعلى كل حال فإن هذهِ المدرسة تعتبر مدرسة سخيفة جداً لأنها تعطي للقوي الحق في استخدام قوته ضد الآخرين.. وهنا تنعدم الأخلاق، لأن أحداً لن يستطيع أن يأمر القوي بالكف عن ما يقوم به من عمل، لأنه إن لم

---

(١) رئيس أسبق للولايات المتحدة الأمريكية (المترجم).
(٢) رئيس أسبق للاتحاد السوفييتي السابق (المترجم).

يكن ضعيفاً فليس هناك من سبب يدعوه للكف عن ذلك العمل. ومن هنا فإن هذه النظرية وهذه المدرسة تجيز للقوي أن يفعل ما يشاء، ولذلك فلا بدّ من البحث عن شيء آخر.

٢ ـ إلغاء الملكية الفردية

وهذه النظرية تقول إن من الممكن بناء نظرية تقوم على أساس نفس الأهداف المادية المشتركة، ولكن ومن أجل الوقوف ضد المفاسد التي تمّ ذكرها، يتم اقتراح طريق آخر وهو: يجب أن نفتّش عن الأسباب التي تدعو الشخص للاعتداء والتجاوز على حقوق الآخرين، ثم نمحو تلك العلل والأسباب، وليس من الضروري أن تكون تلك العلل والأسباب نفسية ومعنوية وتربوية.

وإذا ما سألت أصحاب هذه النظرية عن الذي يمنع القوي من الاعتداء على الضعيف؟ يقولون: إننا نصنع في البداية مجتمعاً ليس فيه ضعيف أو قوي، خصوصاً إذا حددنا أين تكمن نقاط الضعف والقوة..

وعندما نقضي على جذور ذلك.. فإن جميع أفراد المجتمع سيكونون متساوين وعندها سيحترم كل منهم حقوق الآخرين بسبب هذا التساوي.

وجذور القوة والضعف تكمن في الملكية الخاصة، لأن كل القدرات السياسية والاجتماعية تنبثق منها.. إذاً يجب القضاء على الملكية الخاصة ليكون الجميع متساوين في القوة والقدرة وبالنتيجة فسوف لن يستطيع أحداً أن يتجاوز على حقوق الآخرين.

وفي هذه الحالة ستكون هناك أهداف مشتركة للجميع.. وهو الحياة المادية لهم حيث ستكون الحياة الاجتماعية عبارة عن شركة واقعية وسوف لن يكون باستطاعة أحد استخدام القوة تجاه الآخرين، لأننا قد قضينا على أدوات القوة وهي الملكية الخاصة.

والنظرية الماركسية تقوم تقريباً على هذا الأساس.. فهذه النظرية لا

تعتمد على أي شيء من المسائل المعنوية.. وهي لا تتحدث عن الوجدان.. الوجدان الأخلاقي.. بل تعتمد على أصلٍ واحدٍ تعتبره أساساً في كل ما يقع من ظلم وشقاء واعتداء وذلك هو الملكية الخاصة.. وعندما يتم القضاء عليها فقد تم القضاء على آلة الجريمة.

وعندما يتم القضاء على الملكية الفردية وتحَلُ محلها الملكية الاجتماعية، أي عندما يقدّم الفرد من العمل بمقدار ما يملكه من طاقة ويأخذ من المجتمع بمقدار حاجته، عندها سيتحقق مجتمع السلام والأمن والعدالة، وسوف تُقتَلع الكراهية والعداوات والتباغض والحقد من نفوس الناس، وعندها سيشعر الناس بالأخوة والمساواة ويعيشون مع بعضهم على هذا الأساس.

الرد على النظرية

لا تولي هذه النظرية أي اهتمام بالأخلاق والقضايا المعنوية وكأنها تريد إدارة المجتمع بدون أي تدخل للقيم المعنوية وهو أمرٌ يدلّ على نقصها وعدم صحتها، فقد أثبت الواقع العملي أن المجتمعات التي ألغيت فيها الملكية الخاصة ما زالت تعاني من انتشار الظلم والانحراف.

ولو كانت هذه النظرية صحيحة لكان من المستحيل حصول الفساد الاجتماعي في المجتمعات التي طُبّقت فيها الاشتراكية، في حين أننا نلاحظ بين آونة وأخرىٰ حصول مذابح وتصفيات جسدية في المجتمعات الشيوعية بحجة تصحيح الانحراف والقضاء على الفساد.. والسبب في ذلك هو أن الملكية الخاصة ليست السبب الوحيد في الحصول على الامتيازات، خصوصاً أن الامتيازات ليست كلها ماليّة وبيع وشراء، فللبشر سلسلة من الامتيازات الأُخرى التي لها قيمة خاصة لدى الفرد.. وعلى سبيل المثال فإن للمرأة المتفوقة الجمال امتيازاً خاصاً بين النساء في حين أن هذا الموضوع لا يرتبط بقضية الملكية الخاصة، وبعبارة أخرىٰ فإن الملكية إذا كانت مشتركة فإن هذا الامتياز يبقىٰ على حاله ولا يمكن إلغاءه.

والأهم من ذلك هو المواقع والمقامات، فقيمة الموقع والمقام بالنسبة للإنسان أهمّ بكثير من قيمة المال، «فراكفلر» مثلاً يحاول دائماً الاشتراك في انتخابات الرئاسة الأمريكية.. وهو أغنىٰ رجل في العالم، وأنه ضمن مجموعة قليلة من الناس تعد أغنىٰ مجموعة في العالم.. ومع كل ثروته فإنه يشعر بدافع قوي يدفعه نحو الاشتراك في رئاسة الجمهورية.

إن الناس أغلب الأحيان يضحّون بأموالهم في سبيل الوصول إلى الشهرة والرئاسة والقدرة و....

إن الإنسان يجعل لخضوع الآخرين اتجاهه ـ سواء كان ذلك لسبب الخوف أو الحب والإيمان ـ قيمة غير عادية. فعلى سبيل المثال: أليس هناك من الناس من يتمنىٰ أن يكون كالسيد البروجردي الذي كان الناس يتمنّون رؤيته وتقبيل يديه بخضوع وخشوع تامين، ويتمنّون أن يتقبّل ما يقدّمونه من أموال.. ويفتخرون أنه سلّم عليهم...

وهذه قيمٌ بشرية.. فهل كل القيم محصورة بالمال؟.

ومثال آخر.. ملك الدولة.. فهناك مئات الآلاف من الجنود يصطفّون بين يديه وهم في حالة الاستعداد والاحترام.. وهذا أمرٌ له قيمته الخاصة.. ولو لم تكن له قيمة لما تجاوزوا أي موقع آخر.. وهذهِ أمور ومسائل ليست صغيرة ولا قليلة.

وبناءً على هذا فإن جذور وأسباب تجاوز الإنسان على حقوق الآخرين ليست جذوراً أو أسباباً مادية تتعلق بالمال والثروة.. ثم إن تلك الأمور والقيم ليست قابلة للاشتراك لوضعها ضمن قالب الاشتراكية.

ثانياً: عندما يتم الحصول على امتيازات إضافية بوسائل أخرىٰ في نفس المجتمعات الاشتراكية فإن من المُسلّم به هو أن أصحاب تلك الامتيازات سوف يحصلون على المال والثروة أكثر، ولنسأل: هل يتساوى ما يحصل عليه خروتشوف من الثروة في الاتحاد السوفييتي مع ما يحصل عليه أي فلاّح

هناك؟ وإن كان ممثلا لطبقة الفلاحين.. فالفلاح في الاتحاد السوفييتي لن يتمكن ولو مرة واحدة في عمره أن يركب الطائرة ليسافر من مدينة إلى أخرىٰ.. في حين أن خروتشوف بإمكانه أن يستخدم أفضل الطائرات ليسافر على متنها هنا وهناك.

إذاً فالامتياز الوحيد ليس المال والثروة ليمكن حل المشكلة عن طريق الاشتراكية.. وعلى افتراض الاشتراك في الثروة فإن الأمر ليس إلى درجة التساوي بين الجميع في هذا الاشتراك.. فالمسألة ليست كذلك إطلاقاً.

ولنمثل لذلك بالموظف في الدولة عندنا، فمع أن المال العام ليس ملكاً لفردٍ مُعيّن ولكن هل يتصرف الجميع بهذا المال الذي هو ليس ملكاً للأفراد، بنفس الدرجة؟ كلا، فالشخص الذي يحتلّ موقعاً وظيفياً عالياً، كالمدير العام أو الذي أعلى منه، يستفيدون من هذا المال بصور مختلفة كالسفر هنا وهناك.. مع أنه من الميزانية العامة.

علاوة على أن هناك مسألة لا تخلو من أهمية وهي أن المجتمعات الاشتراكية تحتاج إلى التضحية والفداء وصرف النظر عن الامتيازات المادية.. فمثلاً الجندي الذي يجب عليه أن يذهب إلى الجبهة ليشارك في الحرب ومن ثم ليُقتل.. فإنه لا يمكن أن يُقتل على أساس المصالح المشتركة.. لأن ذلك لا معنىٰ له.. إذ يجب أن تكون في داخله أفكار وأحاسيس تحكم وجوده ليكون مستعدّاً للتضحية من أجل تلك المبادىء والأفكار.

ومن هنا فإن حتىٰ أكثر المدارس الفكرية ماديّة لن ترىٰ نفسها بدون حاجة إلى نوع من القيم المعنوية ولو بالاعتقاد بقيمة المسلك نفسه، واعتباره شيئاً له قيمة.. وهذا بحد ذاته يمثل قيمة معنوية خاصة.

وبدون شك فإن المدرسة الفكرية أو النظرية التي تقوم على أساس الاشتراك في المصلحة المادية لا تستطيع أن تكون مدرسة جامعة، ولا تستطيع أن تكون مدرسة عملية، ولذلك فإن أصحابها يضطرون لإدخال بعض

القيم المعنوية.. فمثلا كيف يتصرف قادة الحزب الشيوعي تجاه الحزب وتقاليده وشعاراته؟ وكيف يتعاملون مع ذلك؟ انهم يتصرفون دائماً تجاه ذلك على أساس أن الحزب فوق كل شيء، مع أن التقاليد الحزبية ووفق نظرية الحزب لا قيمة لها سوىٰ أنها وسيلة للوصول إلى المصالح الحيوية، فالتقاليد والمسلك الحزبي في المدرسة المادية لها دور مثل دور الخارطة الهندسية في البناء.. فالخارطة ليست مقدسة في مقابل البناء بل هي وسيلة للوصول إلى البناء. فأفضل الخرائط في مقابل البناء الذي بُني على أساسها فرعٌ، والبناء هو الأساس.. ويجب أن لا يكون البناء فداءً للخارطة بل الخارطة تكون فداءً للبناء.

والغاية التي تبلغها الخارطة هي كونها أفضل خارطة لبناء المجتمع، ولكن لماذا تتحول هذهِ الخارطة إلى صنم على الأفراد أن يعبدوه؟ فالخارطة وضعت لأجل البناء.. والبناء وضع لأجل الأفراد.. ولكن الأفراد يذهبون ضحية للخارطة؟ إن هذا الوضع لا معنىٰ له، ولكن في الوقت نفسه فإنهم لا ينظرون إلى التقاليد الحزبية على أنها نوع من الوسائل للبناء الاجتماعي، بل يُنظر لها بنوع من القداسة والعظمة حيث يفتخر الإنسان بالتضحية في سبيلها.

حاجة المجتمع إلى القيم المعنوية

وبناء علىٰ هذا فإن أي مجتمع اليوم لا يستغني عن الحاجة إلى سلسلة من «الأهداف المعنوية» أو بالتعبير الحديث «القيم المعنوية»، والآن لا بد من معرفة ماهية هذهِ القيم المعنوية؟ هل لها حقيقة، أم أنها مجرد أحاييل وحيل تُمرر على الناس البُسطاء؟ وهي مثل كلمات الوطن والشعب.. التي يرددها البعض لخداع البسطاء من الناس.

يجب أن ندرس ماذا تعني القيم المعنوية.. بحيث تجعل من الإنسان يتعلق بها إلى الدرجة التي يضحي بمصالحه المادية من أجلها؟ وهنا لا بد أن نتحدث عن ما تعنيه كلمة «القيمة».

مفهوم القيمة

إن كل عمل يختاره الإنسان، إنما يختاره لهدفٍ معيّن، وهو عندما يتحرك من أجل تحقيق ذلك الهدف فإنه يجعل له قيمة وأهمية خاصة، سواء كان هذا الهدف معنوياً أو مادياً، وهذا يعني أن للهدف قوة جذب للطبيعة الإنسانية، وإلا فإن من المحال أن يتحرك الإنسان وراء شيء ليس فيه قوة جاذبة.. فهذا شيء غير ممكن وهو مُحال.

وقد قالوا إن العبث المطلق محال أن يصدر من الإنسان، وإن كل ما نسميه عبثاً فهو كذلك من الناحية الفكرية والعقلية، وإنه ليس كذلك من جهة أخرىٰ حيث يصدر منها الفعل. حيث يصل الإنسان إلى هدفه عن طريق قوة الخيال التي تعتبر القوة المحركة. فقوة الخيال قد تحقق الهدف ولكن القوة العاقلة لا تحقق هذا الهدف.

في الأمور المادية[1] ليس هناك مجال للبحث عن الأشياء المفيدة للإنسان وفي استمرار حياته، لأن الإنسان بالذات متعلّق بحياته. وهذه العلاقة غريزية.. فهو تجذبه نحوها. ولها عنده قيمة خاصة «ولو أن مصطلح القيمة لا يستخدمونه في الماديات، ولكن القيمة موجودة في الماديات بالمعنىٰ الأعم»، إذاً فالطبيب له قيمة خاصة عندي، لأنه يبعد عني الأمراض، والدواء له عندنا قيمة خاصة، وكذلك الغذاء له قيمة عندنا لأن يعوض البدن عن فقدانه لبعض المواد.

ثم نصل إلى الأمور المعنوية التي لا يقابلها شيء ماديٌّ، فمثلاً كيف يكون فعل المعروف للآخرين، حيث ليس فيه منفعة مادية.. وأنه يحمل

---

(١) الأمور المادية تعني ما له جسم وما له علاقة بعمل الجسم، فهو إما أن يكون جسماً مثل الغذاء، أو أنه ليس جسماً ولكن سلامة الجسم تتوقف عليه، مثل الرياضة والحركة. إن الإنسان يبدي اهتماماً خاصاً بسلامته البدنية، ولأن الرياضة البدنية موجبة لسلامة البدن، فإن لها عند الإنسان قيمة خاصة.

مفهوماً عاماً هو خدمة المجتمع والأجيال القادمة ـ و . . والإنسان العامل في مؤسسة ثقافية يبذل نشاطاً كبيراً وهو يعتقد أنه يقدّم بذلك خدمة للأجيال القادمة، ولكنه في نفس الوقت لا يحصل على فائدة خاصة بل لعله يتضرر من ذلك خصوصاً وأن مثل هذا الجهد يستغرق منه وقتاً وطاقةً ولا يستطيع نتيجة ذلك من تحقيق دخل أكبر لنفسه . . كل هذه الأمور كيف يمكن دراستها؟ .

علاقة القيم المعنوية بالإيمان بالله

إن قضية المعنويات في حياة الإنسان من القضايا المهمّة . وهنا يُطرح السؤال التالي : هل للإيمان بالأمور المعنوية علاقة ارتباط بالإيمان بالله؟ أي هل أن الإيمان بالله هو رأس سلسلة من الإيمان بالقضايا المعنوية؟ .

أم ليس هناك ما يمنع من أن لا يكون هناك إيمان بالله ولكن في نفس الوقت تتحكم مجموعة من القيم المعنوية بالحياة الإنسانية؟ .

ينقل سارتر في كتاب «أصالة البشر» عن دايستويفسكي الكاتب الروسي المعروف، جملة تقول «إذا لم يكن هناك واجب الوجود فإن كل شيء جائز» . . أي أننا عندما نقسّم الأعمال إلى حسنٍ وقبيح، ونقول يجب القيام بالعمل الفلاني ويجب تجنب العمل الفلاني «طبعاً من جانبه المعنوي» وعلى سبيل المثال نقول يجب قول الصدق، ولا يجب قول الكذب، ولا تجب خيانة المجتمع، ويجب خدمة المجتمع، فإن كل ذلك ينبعُ من اعتقادنا بالله وواجب الوجود، وإذا لم يكن واجب الوجود موجوداً في هذا الكون فإن كل شيء جائز . . بمعنىٰ أن كل شيء مباح وليس هناك ما يمنع من ارتكاب أي عمل، وعندها سيضمحلّ كل شيء اسمه : يجب أو لا يجب، فهل الأمر كذلك أم لا؟ .

المسؤولية قيمة معنوية في المدرسة الإنسانية

إن للماركسيين حسنة واحدة في عملهم وهي كونهم ماديّون لا يهتمّون

بالقضايا المعنوية كثيراً ولا يتحدثون أيضاً عن ذلك، ولا عن الإنسانية، وإذا ما تحدثوا عن الإنسانية السالمة الصحيحة فإنهم يقصدون بذلك المجتمع الخالي من الطبقية، فالإنسان عندهم إما سالم وإما ناقص، وبسبب من وجود الملكية الفردية والتفاوت الطبقي يعتبرون الإنسان فاسداً. . ولذلك فإنهم يعتقدون أن القضاء على الملكية الفردية والتفاوت الطبقي سوف يعيد الإنسان إلى حالته الطبيعية السالمة. ولا يعتقدون بوجود شيء آخر يمنح الكمال للإنسان. . ولا يعترفون بالمسائل المعنوية التي هي سببٌ لبناء المسيرة التكاملية للإنسان.

ويعتقدون أنه يكفي أن لا يفسد الإنسان بسبب الملكية الفردية، وأن لا يكون خاضعاً لسلطة المال والثروة.

ولكن أصحاب المدارس الحديثة الذين ظهروا مؤخراً «مثل سارتر» يسلكون مسلكاً مادياً من جهة، ومن جهة أخرىٰ يدّعون أنهم أصحاب مدرسة إنسانية وأنهم يقفون فوق قيم معنوية وينطلقون على أساس المسؤولية، ويعتقدون أن الإنسان حرٌّ لا تحكمهُ أي قوّة جبرية، إلهيّةً كانت أو طبيعية، وأن الإنسان لا يرتبط بقراره بأي صورة من الصور مع الماضي، وعلى هذا الأساس فإنهم يعتقدون أن الإنسان هو الذي يصنع نفسه ومصيره وليس المحيط ولا الله و. . . أي أنه مسؤول نفسه. . وأن أي عمل يقوم به الإنسان فإنه يعتبرُه عملاً حسناً «وهذا كلام صحيح، حيث إن الإنسان حتىٰ لو قام بعمل سيء، فإنه لن يقوم بذلك العمل إذا لم ينطبع في وجدانه على أنه عمل جيد، ولو كان من زاوية واحدة، حيث يجعل له في وجدانه أمراً «وجوبياً» إذاً فإن أي عمل ينتخبه الإنسان ويختاره، فإنه يُفهِمُ الآخرين وبدلالة التزامية بأنه عمل جيد.

فعندما أقوم بعملٍ ما فإنني أريد أن أقول للمجتمع إن العمل الذي قمت به عملٌ جيدٌ، ويجب أن يكون العمل هكذا.

إن كل عمل جزئي يستبطن في داخله عمومية، أي أن أي عمل يقوم به الإنسان بصورة فردية فكأنه يريد أن يقول للمجتمع: هكذا يجب العمل، ومن الطبيعي أن يدعو المجتمع على أن يفعل على نفس النمط الذي يفعله هو.

إذاً فالإنسان مسؤول عن نفسه كما هو مسؤول عن الآخرين، خصوصاً وأنه يعتقد أن لعمله قيمة، وهو يعرفها جيداً وعلى هذا الأساس فإنه يدعو الآخرين للقيام بنفس العمل. ومن هنا فإنهم يطرحون مسألة المسؤولية وهي أن كل إنسان في هذا الوجود مسؤول عن نفسه والآخرين.

الرد على النظرية

والآن نسأل: ما هي هذه المسؤولية وماذا تحمل من معنىٰ؟ المسؤولية ليست أمراً مادياً، بل هي واحدة من القضايا المعنوية، وعلى أصحاب المدرسة المادية إعطاء الأجوبة على هذه الأسئلة، وعليهم في أقل تقدير أن يعترفوا أن للإنسان ضمير يسائلهُ مثل النفس اللوامة التي يذكرها المنطق الديني.

فالإنسان في الواقع يحمل شخصيتين، أحداهما حيوانية، والأخرىٰ إنسانية ملكوتية.. تقوم بتأنيب الشخصية الأولىٰ (الحيوانية) عندما ترتكبُ ذنباً.. ولكن هؤلاء ينكرون وجود الضمير.. وإذا لم يكن الأمر كذلك فما هو أصل المسؤولية؟.

وبصرف النظر عن جذور المسؤولية، وعجزهم عن إثباتها، فإنهم في نهاية الأمر يعتقدون بوجودها وهي مقولة: إنني مسؤول تجاه بقية البشر. أو إنني مسؤول تجاه الأجيال القادمة و... فماذا تحمل هذه المقولات من معنىٰ؟.

إنهم أصحاب مدرسة مادية وفي نفس الوقت يحاولون تقوية الأسس المعنوية للإنسان ودفعه للالتزام بها ما عدا الإيمان بالله، حتىٰ أن سارتر وانطلاقاً من عقيدته يقول: إن الله إذا تدخل في هذه الأمور فسوف يضيع كل

شيء، لأن جذور كل تلك المسائل هي حرية الإنسان، وإذا كان الله موجود فلا معنىٰ للحرية، وفي حالة انتفاء الحرية، فإن الاختيار والانتخاب لا معنىٰ له، وبالنتيجة فسوف تفقد المسؤولية معناها، بل إن عدم وجود الله، وحرية الإنسان هما السبب في تحمّل الإنسان للمسؤولية.

إذاً فإن هؤلاء ومع اتّباعهم للمدرسة المادية والتفكير المادي، يحاولون إيجاد نوعٌ من المسائل المعنوية المسلكية وليس الفلسفية، فهل هذا الشيء ممكن أم لا؟.

هل يمكن أن يكون الضمير جذراً للمعنوية؟

من الممكن أن يقول أحد، ما الذي يمنع من أن لا نؤمن بالله ولكن في نفس الوقت نؤمن بنوعٍ من القضايا المعنوية، خصوصاً وأن هذهِ القضايا المعنوية موجودة في ضَمير الإنسان ووجدانه، سواءٌ كان منشؤها الصدفة أو شيء آخر، فهي موجودة في الإنسان.. الله ليس موجود، ولكن هذهِ القضايا المعنوية موجودة، بمعنىٰ أن الإنسان مهما كان، فإن في داخله وجدان وضمير يجعله يلتذ بالأعمال الحسنة ويتنفّر من الأعمال القبيحة، وأنه يقوم بالعمل الحسن ليس من أجل تحصيل المنفعة أو الفائدة الماديّة بل من أجل تحصيل اللذة من خلال القيام بالأعمال الحسنة، وبناءً على هذا فإن اللذة عند الإنسان ليست محصورة باللّذة المادية، بل هناك لذّة معنوية كذلك، مثل لذة الحصول على العلم مع أنها لا يمكن أن تكون محسوسة مادياً، أو مطالعة التاريخ والاطلاع على أحوال وأوضاع الماضي، أو مطالعة الجغرافيا ومعرفة ما في أعماق البحار.. فكل تلك المعلومات مما يلتذّ بها الإنسان مع أنه يعلم مئة بالمئة أن معلوماته في هذه الجوانب لا تضيف إليه فوائد مادية «مالية»، ولكنه مع ذلك يلتذّ بالحصول على تلك المعلومات، لأن الإنسان خلق وهو يحمل معه طبيعة حب الاطلاع والتلذذ بذلك، فهو يلتذ بالقضايا الأخلاقية، مع أنها لا تُكسبهُ أي منفعةٍ مادية لأن الإنسان إنما ينجز من أجل اللذة.. غاية الأمر أن اللذة أما أن تكون مادية أو معنوية..

لقد كان أبيقور وهو من فلاسفة اليونان القدماء من أنصار اللذة ـ أصالة اللذة ـ، غاية الأمر أنه يُعبّر عن ذلك كما يقال بأنه من أنصار «المنفعة»، وكذلك يُنقل ذلك عن عمر الخيّام، والمقصود من ذلك الأكل والشرب والسعادة الظاهرية، والاستفادة من الفرص في تناول الطعام والشراب وأي نوع من أنواع اللذّة المادية، ولهذا عُرفت الأبيقورية بـ «اللا مبالاة» ولكن يقال إن المدرسة الواقعية لأبيقور لم تكن كذلك فهي لم تحدد اللذة بالإطار الحيواني فقط، بل إنه كان يعتقد بوجود سلسلة من اللذات المعنوية للإنسان، وأن اللذات المعنوية أكثر دواماً وأقل عذاباً للإنسان من اللذات المادية.

ومن الممكن أن يتساءل أحد من الناس عن الذي يمنع من الاعتقاد بالقضايا المعنوية وأن الإنسان يحصل على اللذة من خلال الالتزام بالقضايا الأخلاقية مع عدم الإيمان بالله، وعلى سبيل المثال فإن الإنسان يلتذّ بالنظر إلى الجمال مع أن ذلك لا يمثّل له أي منفعة مادية تعود على جسمه بالفائدة أو أنها ليست جسماً أصلاً، أو أن الإنسان إذا كان يملك بيتاً زرع فيه الورد وكان يلتّذُ بالنظر إليه وكان يمثل بالنسبة له قيمة معينة في حين أن هذا المنظر الجميل ليس مادةً بحد ذاته ليلمسه الإنسان ولا هو نافعٌ لجسم الإنسان، ولكنه نافع لنفسية الإنسان.

أو أن يكون الطير المغرد ذي الصوت الجميل ذا قيمة عند الإنسان فهو يلتذّ به حين سماعه مع أن التغريد ليس مادة حتىٰ يصل إليها الإنسان. ولا جسمه ينتفع من ذلك التغريد.. ولكن المستفيد من ذلك روحه ونفسه.

إن هذا الكلام صحيح إلى حد ما، ولكن هنا إشكالين، الأول: إن القضايا الوجدانية عند الإنسان ليست قوية إلى الدرجة التي يمكن معها بناء أو تأسيس مدرسة فكرية عليها بحيث تستطيع ومن خلال التربية أن تضحّي بالمنافع والمصالح البشرية في سبيلها، إلى الحد الذي يُضحّي فيه الإنسان بنفسه في سبيل تلك الملذات المعنوية.

فالإنسان إذا أراد أن يفعل شيئاً من أجل تحقيق تلك الملذات المعنوية

فإنه يفعل ذلك ويتوقف عند حدود القتل، أو الذهاب إلى السجن، أي أن تلك المسائل صحيحة في حدود المسائل الفنيّة، ولكنها ليست صحيحة على أساس أنها تشكّل حاجات أساسية للبشرية، لكي يرتبط الإنسان بمدرسة فكرية من أجل تلك القيم المعنوية.. كما أنه ليس هناك من أحدٍ في هذه الدنيا مستعد للموت من أجل أن تبقىٰ زهور حديقته يانعة، خصوصاً وأن الزهور إنما تزرع من أجل أن يلتذّ بها الإنسان وليس العكس، أو على سبيل المثال: مسألة المساعدة فإذا فكر الإنسان أنه يقدّم المساعدة للآخرين بسبب ما يشعر به من لذة عند مساعدته للآخرين فإن ارتباطه بالقيم الأخلاقية تبقىٰ بحدود ذلك. ولهذا فإنه لن يكون مستعداً للتضحية بنفسه من أجل ذلك أو لا معنىٰ لذلك.

إذاً فإن من الصحيح أن الإنسان يلتذّ أو يحصل على اللّذة في عمق ضميره ووجدانه عندما يقوم بعملٍ فيه خدمة عامة «والقرآن الكريم أيضاً يقبل بذلك» ولكن هذا المقدار من الإحساس الوجداني لا يكفي لكي يكون أساساً للارتباط بالعقيدة.

أي أن حاجة العقيدة للإيمان بالمعنويات تقع في درجة أعلى وأفضل، ولذلك إذا قال شخص إن الإمام الحسين (ع) ذهب إلى كربلاء وضحىٰ بنفسه وأهل بيته، وقدّم حياتـه للأسر لأن ضميره ووجدانه يلتذّ بتقديم الخدمة للبشرية.. فإنه غير صحيح.. خصوصاً وأن اللذة تعود على الإنسان.. وعندما «يخسر» الإنسان نفسه فإنه لا يعود عليه شيء.

ثانياً: إذا لم يكن في هذا العالم إلّه، ولم يكن هناك نظام ولا هدف لهذا الوجود، ولم يكن هناك نوع من الارتباط الباطني بين الأشياء وبين الناس، أوليس الإحساس باللّذة التي خُلقنا على أساسها هو نوع من الخطأ في الطبيعة؟ إن اللذة موجودة فينا، ولكنها نوع من الخطأ، خصوصاً وأن كل لذّة من اللذات المادية إنما تنتج من خلال الحاجة الطبيعية.

يقول شوبنهاور، الطبيعة، ومن أجل أن تخدع الإنسان وتجعله يجري

وراءها فإنها تذيقُه بعض الملذّات، بحيث تخدعه بهذه الوسيلة وتجعله يتحرك أو يجري وراءها. فالطبيعة مثلاً لها هدف مثل بقاء الأجيال، فإذا قالت للبشر أو أمرته بالزواج وتحمل الصعاب والإنفاق المادي والمعاشي على زوجته وأطفاله وكل ذلك من أجل استمرار الحياة البشرية، فإن أي عاقل لن يفعل ذلك، ولكن ومن أجل خداع هذا البشر ليتحرك باتجاه تحقيق هذا الهدف خُلقت اللّذة عند الإنسان بحيث يتحرك هو عن طواعيته لتحقيقها مثل الزواج. وعلى كل حال فإن كل لذّة تعتمد على الحاجة، فإذا ما التذّ الإنسان بنوعٍ من الطعام فذلك بسبب احتياج طبيعتنا إلى نوع من المواد.. وإذا لم نلتذّ بذلك الطعام فإننا لا نأكله.. ونحن نشرب الماء لأن طبيعتنا تحتاج إلى الماء.. ونلتذّ بالنوم لأننا نحتاجُه.. إذاً فإن كل لذّة إنما هي تلبي حاجة واقعية فينا.

كما أن كل ألم، ينتج عن وجود نوع من المانع والتضاد: إذاً فلسفة اللذّات المادية أصبحت واضحة: الأعمال الحكيمة تنتجها الطبيعة.

ولكن: ما هو الحال مع اللذات المعنوية؟.

فمثلاً عندما ألتذّ بتناول اليتيم للخبز ما علاقة ذلك بي؟ فإنه هو الذي يلتذّ بتناول الطعام، فلماذا ألتذّ أنا، فهذهِ اللّذةِ وبهذهِ الصورة إنما هي نوع من اللغو، إذ لا علّة لها ولا حكمة لها أو سبب معقول.

ولكن إذا قلنا بوجود نوع من الارتباط في نظام الكون، وأن الخِلقة تعمل وفق حكمة معينة، أي أن تكون بيني وبين بقية الناس نوع من الرابطة والعلاقة في أصل الخلقة، وأن كل عضو يمثل جزءاً من بدنٍ واحدٍ، فعندها لن يكون للذّةِ التي أسعىٰ وراءها معنىٰ اللغو والاعتباط، بل أسعىٰ نحو تأكيد أصلٍ متقنٍ في الخلقة.

ولكن إذا كانت تلك اللذّة مصادفة، وأنني عندطريق المصادفة قد خُلقْتُ بحيث ألتذّ بحصول الآخرين على الخير، فإن هذهِ اللذةِ ليس لها أي معنىٰ أو فلسفة، وفي هذهِ الحالة فإن المسألة في نهاية الأمر توصف باللغو

والاعتباط واللاهدفية.

أي أن الطبيعة ليس لها من خلال عملها أي هدف، وإنما هي أعمال لها صفة اللغو والاعتباط وإنني أسعى وراء ذلك العمل، وفي نفس الوقت أضع نفسي في موضع الجندي للدفاع عن الناس وأضحي بنفسي من أجل اللذة التي أحصل عليها من وراء ذلك.

ولكن ما هي اللذة نفسها؟ فأنا لا أعرف فقد خُلِقتُ هكذا «مثلما يُخلق الإنسان أحياناً وهو بأصابع ستة في إحدى يديه».

فالطبيعة هنا تقوم بأعمال اعتباطية.. وكذلك عملي اعتباطي، وهو في نهاية الأمر ليس له قيمة أو هدف محدد.. وعلى هذا فإن هدفي يقوم على أساس لذّة وُضعت في داخلي عن طريق الخطأ، والشيء الذي هدفي فيه (أي الطبيعة) ليس لها هدف، لا يُخرج حياتي عن العبثية.

الاعتقاد بوجود الحكمة في الخِلقة أصل الإيمان بالقِيم المعنوية

إذاً فنحن نقول ونؤمن بالوجدان الأخلاقي ونقول في نفس الوقت إن الإنسان بفطرته يلتذّ بالعمل الحسن ويتألم من العمل القبيح، وإذا لم يكن لك والخلقة وهدفية الخلقة دخلٌ في الأمر، فإن عملنا لا يخرج عن دائرة العبثية. ولكن هنا حيث يوجد الوجدان الأخلاقي «ونحن نعتقد واقعاً بوجوده» والذي أعتقد أن الله خلقهُ عندي لكي أُنجز أعمالي عن هدف ينسجم مع أصل الخلقة، لكي أرىٰ أن ذلك اليتيم وتلك المرأة العجوز إنما هم جزءٌ من خارطة واحدة، وجسم واحد، وأننا نتحرك وراء مشيئة أزلية باتجاه حكمة معينة، لنحقق هدف الخلقة والخالق، وفي هذه الحالة فإن المسألة المعنوية ليست عبثا وإنما هي مسألة حقيقية وواقعية.

وبناءً على هذا فإن كل عقيدة، وكلّ نظام فكري اجتماعي يحتاج إلى سلسلة من الأفكار المعنوية، ولذلك فإننا نقول بحاجة الأفكار إلى قيم فوق المادة، وأن القيم لا بد أن تكون قوية ومُحرّكة ومقدّسة، وعلامة قدسية

الشيء هي اعتقاد الإنسان بأنه يستحق التضحية بحياته من أجله.

إذاً فإن كل عقيدة تحتاج إلى هذا النوع من الأهداف والقيم المعنوية، ولا يمكن بناء عقيدة شاملة وجامعة للبشرية على أساس الاشتراك في المنفعة فقط، كما هو الحال مع الماركسية. وبدون الإيمان بالله الذي أوجد الخلق لحكمة وهدف، لا يمكن الإتيان بأفكار تحمل تلك القيم العالية.

فالعقيدة التي تقول ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أن الله سخّر لكُم ما في السمواتِ وما في الأرض** ﴾[1].

ترىٰ أن لكل ذرّة من ذرّات هذا الوجود مسؤولية محددة. فللشمس وظيفة ومسؤولية محددة، وهي تؤدي وظيفتها.. والسحاب الذي يتحرك إنما يؤدي وظيفته.. فحركة السحاب تعني أنه يؤدي وظيفته.. وحركة الريح تدلّ على أداء الوظيفة والمسؤولية، وإنتاج الفاكهة يعني أن الشجرة تؤدي وظيفتها.

إذاً فمثل هذه العقيدة، ترىٰ أن الإنسان كذلك مسؤول.. فالإنسان موجود مسؤول في بحرٍ من المسؤوليات.

أما العقيدة التي ترىٰ أن كل شيء عارٍ عن الهدف والغاية، لا ترىٰ ولا تعتقد بوجود المسؤولية على عاتق أي موجود، ولكنها عندما تصل إلى الإنسان فقط تحاول تحميله المسؤولية بحيث يشعر البشر فعلاً بالمسؤولية، مسؤولية نفسه والآخرين، وأن يكون مُستعدّاً للتضحية من أجل تلك المسؤوليات والقيم المعنوية. فلماذا وعلى أي أساس؟ لقد قلنا إن أكثر ما يمكن أن يُقال هو أنه يفعل ذلك بسبب الإحساس باللذة، مع أن هذهِ اللذة لغوٌ أنجزته الطبيعة.

وبناءً على ما تقدّم فإن كل عقيدة تحتاجُ إلى القيم المعنوية، وبدون

---

(١) سورة لقمان الآية ٢٠.

الاعتقاد بالحكمة من وراء الخلق فلا يمكن الإيمان بمثل تلك القيم، ومثل تلك الأهداف لازمة كل حركة وخطوة تريد العقيدة تحقيقها «الهدف الذي هو منتهىٰ الأمل» بمعنىٰ أن لا تكون الحياة الخاصة أو الشخصية لأي فرد منتهىٰ أمله، بل هي الأعمال الكبيرة التي تكون منتهىٰ الآمال.

جاء إلى رسول الله ـ صلى الله عليه واله ـ رجلٌ تزوّج حديثا وقال له: يا رسول الله، أتمنىٰ الشهادة فادع الله أن تكون من نصيبي. . فهذه العقيدة إلى أي حد أعطت الإنسان أهدافا كبرىٰ بحيث يسعىٰ دائما الوصول إليها بالشهادة.

وأن هذا الهدف لا يتحقق بالكلام الذي قيل، ولا يمكن صناعة مثل هذا الإنسان، وبدون هذا الهدف.فإن كل عقيدة ليست عقيدة.

* * *

المحاضرة الثالثة

العقيدة.. والرؤية الكونية

أُلقيت بتاريخ ١/ ٨/ ١٩٧٢

يمكن التعبير عن ما تقدم بالشكل التالي: إن صاحب عقيدة اجتماعية كاملة وفكر صحيح يحتاج إلى نظام فكري وفلسفي كما يحتاج إلى الإيمان بمعنى، أنه يحتاج إلى رؤية كونية مُحكمة، وتحليل منطقي خاص واستدلال منظم حول قضايا العالم، وكذلك يحتاج في نفس الوقت إلى الإيمان، أي أنه يملك القدرة على خلق الارتباط والحب نحو الأهداف والأهداف العُليا التي تسمو على الأهداف الشخصية الخاصة.

إن النقص الذي تعاني منه بعض المذاهب الاجتماعية، بل أغلب المذاهب الاجتماعية الحديثة مثل مذهب الوجودية أنهم يحاولون خلق أيدلوجية خالية من الإيمان، أي خالية مما هو فوق الإنسان والذي يعشقه الإنسان، وهو في الواقع شيء يعبده الإنسان نوعاً ما. فهؤلاء يريدون إيجاد مذهب على أساس الفلسفة المحضة، وهذا أمرٌ غير ممكن.

فالأيدلوجية القائمة على الفلسفة المحضة بدون إيمان والذي هو نوع من الارتباط والعشق بالهدف الأعلى، لا تمثل أيدلوجية إنسانية كاملة.

وفي بعض الأوقات يوجدون نوعاً من الدور، حيث يتضح أن الأمر مجرد تخيّل أو الاستفادة من قوة التخيّل عند الإنسان. فهم يحاولون مثلاً أن يجعلوا الأيدلوجية موضوعاً للإيمان خصوصاً وأنهم يُحسّون بوجود هذا الفراغ وهو ضرورة ارتكاز الأيدلوجية على الإيمان بهدف أعلى لكي يكون مقدّساً. ولكن إذا كانت الأيدلوجية نفسها غير مرتكزة على الإيمان، وليست فقط نظام فكري، فكيف يمكن جعلها موضوعاً للإيمان أي الحب والارتباط. وهذا ما لا يمكن أن نجد له أي أساس منطقي.

والآن لنقرأ ما كُتب حول العقيدة:

«العقيدة عبارة عن نظام فكري عملي» أي أنه ليس نظاماً فكرياً صرفاً وليس فقط نظرياً يرتبط بالعلوم النظرية ولا بما يجب أن يكون.

وهو باصطلاحنا الفلسفي، نظام فكري نظري، أي التفكير بما هو موجود. وعلى سبيل الفرض نقول إن فيزياء أرسطو هي نوع من النظام الفكري النظري، أي أنها نوع من أنماط التفكير حول ما هو موجود؛ كيف هو، أو نقول إن فيزياء نيوتن نوع آخر من النظام الفكري النظري حول ما هو موجود.

ولكن النظام الفكري العملي، يعني النظام الفكري حول ما يجب أن يكون، وباصطلاح القدماء.. الحكمة العملية.. حيث تنقسم الحكمة إلى حكمة نظرية، وحكمة عملية، فالحكمة النظرية تعني الإدراك الصحيح لما هو موجود، والحكمة العملية تعني الإدراك الصحيح والواقعي لما يجب أن يكون.

وبناءً على هذا فالعقيدة عبارة عن نظام واحد فكري عملي، أي نوع من النظام الفكري حول ما يجب أن يكون، إنه مشروع للطريقة التي يكون فيها الفرد والمجتمع جيداً، وعند تعريف العقيدة الاجتماعية لا بد من إضافة كلمة أخرىٰ فنقول: العقيدة الاجتماعية عبارة عن نظام واحد فكري اجتماعي عملي، وليس مجموع الأفكار المتضادة التي لم تتشكل في نظام واحد.. لأن أحد أركان العقيدة وأساسياتها هو أن تكون جهازاً متكاملاً.. مثل الجهاز الذي يتشكل منه المعمل، فذلك الجهاز يتشكل من جهة من عدة أجزاء، وإن لكل جزء عملٌ مُعيّن وموقع معيّن. وعلى سبيل المثال فإن العِمارة تمثّل جهازاً لأن كل جزءاً فيها يقوم بدور معين ومجموع هذه الأدوار والوظائف تشكّل هدفاً واحداً، ولذلك فإن الأفكار المتناثرة لا تشكل عقيدة، لأنها لا تستطيع أن تنتج وحدة واحدة ولا جهازاً واحداً.

إن مجموع الأفكار المتناسقة التي لها علاقة وارتباط بالحياة العملية أي

بما يجب ربما لا يجب تكوّن عقيدة تعتمد على الأفكار النظرية، وهذه الأفكار النظرية تُعدُّ روح تلك العقيدة. ولهذا نقول «تعتمد على الأفكار النظرية» حيث قلنا إن كل أيدلوجية لا بد أن يكون لها رؤية كونية، والرؤية الكونية نفسها تعتبر نظرية عن العالم.. حيث هو موجود.. ولكن الأيدلوجية التي تضع نظريتها حول الإنسان لا بد أن تقرر ما يجب أن يكون.

إن أساس وروح العقيدة هي تلك الروحية والشعور التي تجعل من الجميع جهازاً واحداً وجسداً واحداً وبقيّة الأشياء بِمَنزِلة الأعضاء والجوارح الرئيسية وغير الرئيسية، حتىٰ أن بعضها يَعدُّ بمنزلة الشعر الذي ينساب على الجسد حيث هو يملك جنبة غير أساسية.. مثل اللازم وغير اللازم والواجب والمستحب...

حاجة الأيدلوجيا إلى الأساس الفلسفي والأساس الإيماني أيضاً

إن الفكرة الوحيدة التي تستطيع أن تكون روحاً للعقيدة، هي الفكرة التي تشكل من جهة أساسا للرؤية العالمية لتلك العقيدة، أي تملك نوعا من الرؤية والتقييم حول الوجود، ومن جهة أخرىٰ تملك «الهدفية»، وهذا هو نفس ما قلناه من أن الأيدلوجية تحتاج إلى أساس فلسفي وأساس إيماني كذلك.

فمن جهة تقوم على أساس منطقي، لكي تستطيع عن طريق الاستدلال والمنطق أن تثبت ما هو موجود، ومن جهة أُخرىٰ تلوّن السلوك بالهدفية لتكون الحركة نحو أهداف معينة، أي أنها تستطيع أن تعرض أو تقدّم شيئا يكون موضوعا للإيمان ويكون موضوعاً للهدف أو الأهداف.

أي أنها تعرض للبشر محبوباً ومعشوقاً وتحرّك البشر أيضا نحو ذلك المحبُوب. فهي فلسفة وتكامل أخلاقي واجتماعي.

إن القوة المحركة لأي رؤية عالمية إنما تحددها أهدافها.. ومجرد الرؤية العالمية لن تكون محرّكة ما دامت لا تملك هدفا، مثل أن تعرض علينا

أعظم المدارس الفلكية معلومات عن النجوم وأوضاعها ومواقعها. ولكنها لا ترتبط بنا، أي أن النجوم والكواكب على ما هي عليه من أوضاع أو تغيّرت أوضاعها لا تأثير لها على الحياة وأهداف الإنسان. فإنها بخلاف المدرسة التي تعرض علينا الأشياء محيطةً إياها بأهداف كبرىٰ للإنسان.

التوحيد أساس للرؤية العالمية وكذلك للهدف

والتوحيد يمتلك مثل هذهِ المواصفات، فهو من جهة يعتبر أساساً وروحاً لفلسفة الرؤية العالمية ونوعاً من النظر والرؤية حول عالم الوجود، وهو من جهةٍ أخرىٰ يمثّل نوعاً من الأهداف والتكامل، حيث كلمة «لا إلٰه إلا الله»، إذ يعني النفي «لا إلٰه» معنىٰ الكمال وفي جملة الإثبات «إلا الله» توضح أصالة التوحيد في الوجود..

وكان قدماؤنا يُعبّرون عن ذلك بقولهم التوحيد على أقسام: التوحيد في الذات أي الاعتقاد بالتوحيد الذاتي ﴿ليس كمثله شيء﴾، والتوحيد في الصفات، أي أن ذاته لا تغاير صفاته. فهي في عين البساطة والوحدة، وكذلك التوحيد الأفعالي.

وهذه كلها سلسلة من الأفكار النظرية والفلسفية المتشابهة، ولكنها في نفس الوقت توحيد في العبادة أيضاً، ولأنه كذلك فالواجب أن يُعبَدْ، أنه أهلٌ للعبادة، وعبادته تضربُ جذورها في عمق روح ونفس الإنسان ﴿ أفغير دينِ الله يَبْغُونَ ولهُ أَسْلَم مَنْ في السَّمٰواتِ وَالأَرضِ ﴾[1].

إن العبادة التي نؤديها هي في الواقع نوع من التسليم الاختياري، وهي نوعٌ من العبادة التكوينية الموجودة في كل الموجودات ﴿ يُسَبِّحُ للَّهِ مٰا في السَّمٰواتِ وما في الأرضِ ﴾[2] ﴿سَبَّح للَّهِ ما في السَّمٰوات وما في

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨٣.

(٢) سورة الجمعة الآية ١.

الأَرضِ ﴾[1] ﴿ للَّه يَسْجُدُ من في السَّموات وَالأَرْضِ ﴾[2] .

ومن هنا فإن التوحيد في العبادة لذات الحق الواحدة هي هدف للبشر أيضاً، كما أن الذات الواحدة ليس لها مثلٌ، وليست مركّبة، وهي مبدأ العالم، كما أن الذات الواحدة هي الذات الوحيدة اللائقة بعبادة البشر، وهذا هو ما نقوله من أن للتوحيد صفتين، فهو من جهة نوعٌ من الاعتقاد والنظر ونوعٌ من التقييم حول الوجود، ومن جهة أُخرىٰ هدف للبشر.

الماركسية بنفسها ليست هدفاً

ولكن الماركسية مثلاً ليست كذلك، والرؤية العالمية للماركسية رؤية مادية، والرؤية المادية للعالم هي نوعٌ من النظر والتقييم حول الوجود، وهي نوع من فلسفة الوجود، ولها طبعاً تأثيرٌ في تفسير الحياة والنشوء، ولكنها ليست هدفاً.

إن المادية لا تستطيع مطلقاً أن تقدّم للإنسان هدفاً. . والهدف الذي تقدّمه الماركسية إنما هو ينحصرُ في الجانب الاقتصادي وليس في الجانب المادي.

أي أن الماركسية الاقتصادية تقدم للبشر هدفاً، وهو ليس هدفاً إنسانياً، أي أنها تقدم مصلحة البشر والطبقة المحرومة على أنها الهدف، وهي تخاطب المحرومين وتقول لهم أيها المحرومون اعملوا واسعوا من أجل أن تحصلوا على حقوقكم. ولذلك فالماركسية ناقصة من ناحية صناعة الهدف والأيدلوجية، خصوصاً أن هذا الهدف يبقىٰ إلى الوقت الذي يحققه الإنسان، وبعد أن يحققه فكيف ستكون الأمور، وماذا سيحصل لذلك الهدف؟ فبمجرد سقوط الطبقة الحاكمة المستبدّة تنتهي الأيدلوجية والهدف.

---

(١) سورة الصف الآية ١.

(٢) سورة الرعد الآية ١٥.

علاوة على أن ذلك لا يستطيع أن يكون هدفاً مقدّساً، فهو هدف مادي مئة بالمئة، ولن يستطيع مثل هذا الهدف أن يتسامىٰ فوق الإنسان.

وعلى هذا الأساس تكون التضحية عند هذهِ المدرسة والعقيدة لا معنىٰ لها وهي غير منطقية تماماً لأنها ستكون متناقضة مع أهدافها، لأنها تسعىٰ لإيصال الإنسان إلى مرحلة تحقيق مصلحته المادية وفي نفس الوقت تطلب منه التضحية بكل وجوده في سبيل ذلك، وأي مصلحة هذهِ التي يفقد الإنسان حياته في سبيلها.

الماركسية إذاً ليست هدفاً بحد ذاتها، بل هي في الحقيقة بدون هدف، وهي عودة لسيطرة الغرائز الفردية، التي تشكل عصب الرؤية العالمية للماركسية، فهي ليست كمالاً وهدفاً فردياً أو اجتماعياً..

قوة الماركسية تتمثل في تحطيم القيود والسلاسل، على أنها لا تستطيع أن تفسّر وتُبرر كل شؤون الحياة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية والأخلاقية إلا عن الطريق غير المستقيم، وفي هذه الحالة ستفقد «العدالة» و «الأخلاق» مفهومها الواقعي. وبعبارة أخرىٰ فإن روح العقيدة تتشكل من نوع من العلاقة بين العلّةِ والمعلول، والذي يؤثر في ارتباط العلة والمعلول هو الهدف الذي يمنح للعقيدة رؤيتها العالمية، ولهذا السبب، فليس كل رؤية عالمية تملك صلاحية تشكيل روح العقيدة لأن من الممكن أن لا تملك هدفاً.

إن الإنسان ينظر إلى المستقبل عندما يريد أن يصنع شيئاً، وليس إلى الحاضر والماضي، فما علاقة السؤال عن كيف كان العالم أو كيف هو الآن مع الرغبة في صناعة عالم متكامل مثالي ينسجم مع ميولي؟ وبعبارة أخرىٰ فإن الفلسفة وحدها لا تكفي.

الوجودية لا تستطيع خلق الالتزام

يتفاوت أصحاب الرؤية العالمية فيما بينهم من زاوية أخرىٰ، وهذا

التفاوت هو أن أحدهم «يخلق الالتزام» والآخر لا يملك ذلك، أي أن أحدهم يلقي المسؤولية على الإنسان والآخر لا يفعل ذلك.. والرؤية العالمية التوحيدية تخلق الالتزام، وكلما حاولنا التفكير بالكيفية التي تخلق بها الوجودية الالتزام فإننا لن نصل إلى نتيجة، وخصوصاً أنها لا تملك أساساً. وكل ما يقال عن الالتزام والمسؤولية لا يُعرف أين أساسه وجذوره.. أنا مسؤول نفسي فقط بسبب أنني حُرٌّ. وهذهِ الحرية ليس لها معنىٰ سوى أن الآخر «سوء حظي» ليس مُقصراً، إذا كنت مجبوراً فالمُقصّر سوء حظي، لست أنا المُقصّر وإنما هو الآخر. ولكن عندما أكون حراً مائة في المئة فكيف هو الحال؟.

وبطبيعة الحال فإن الحرية التي يتحدث عنها هؤلاء ليس لها لها مفهوم وهي خطأ تماماً، خصوصاً أنها مساوية للحرية التي يقول بها الأشاعرة، الذين أرادوا إثبات أن إرادة الإنسان حرّة تماماً وأنها غير مرتبطة بأي شيء.. وفي هذا الاعتقاد إشكالاتٍ متعددة، ولكن إذا افترضنا وعلى كل حال، إنني حرٌ وليس هناك أي نوع من الجبر يحكم سلوكي، وكذلك الطبيعة البشرية، وكذلك انعدام جبر البيئة والمحيط والجبر الإلهي.. وأنني حر مطلق، وفي هذهِ الحالة وحسب قول هؤلاء إنني مسؤول نفسي، فإن أقصىٰ ما يمكن تفسير هذا القول هو أنه ليس هناك أي عاملٍ مسؤول عن «سوء حظي» فإذا كنت أنا سيّء الحظ فأنا المسؤول عن ذلك.

ولكن هل معنىٰ هذا، أنني أتحمّل المسؤولية أمام الآخرين لكي أقول إنني عندما أنتخب شيئاً أكون مسؤولاً عن انتخاب شيء يكون في مصلحة الآخرين كذلك؟ وهذا يعني أنهم يريدون أن يُلقوا على عاتقي مسؤولية الآخرين، وهذا الإحساس بالمسؤولية من أين نشأ بالنسبة لي؟ وإذا قيل إنني مؤثر في الآخرين، حيث أستنتج ذلك، ولكن المسؤولية شيء آخر.

أولاً لأن الآخرين كذلك أحراراً، وهذهِ الحرية المطلقة لا تتناسب أو تتلائم مع المسؤولية تجاه الآخرين، وعلى ذلك النمط من الحرية التي يقولون بها فلا معنىٰ للمصير والنموذجية.

فهو يقول إنني وبسبب كوني حراً فأنا إذاً مسؤول عن نفسي، ولأن كل طريق اختاره فإنني أختاره بسبب اعتقادي أنه طريق صحيح، وهذا بدلالته الالتزامية يعني أنني أقول للآخرين اختاروا نفس الطريق، فأنا إذاً أمنح طريقي صفة عمومية فأقول إن هذا الطريق صحيح ليس فقط بالنسبة لي بل هو كذلك للجميع. فأنا أدعو الآخرين أيضاً لانتخاب نفس الطريق.

وكما قلنا فإن الآخرين أحرار فليس هناك أي عاملٍ يمكن ترجيحه للتأثير على اختيار الآخرين.

وثانيا: ولو فرضنا أننا قبلنا هذا الأمر وهو طبعاً حتىٰ هذا الحد، فحديث «كونوا دُعاةَ النّاس بغير ألسنتكم» يحمل هذا المعنىٰ، وعلى هذا الأساس فإنني سأكون مؤثّراً في انتخاب الآخرين، ولكن هذا التأثير في انتخاب الآخرين واختيارهم يختلف عن إحساسي الداخلي بالمسؤولية، لأن هذا الإحساس بالمسؤولية يجب أن يستقرّ في عمق الوجدان والضمير.

و «أنا مؤثر» ليس أكثر وأعلى من إدراكي بأنني مسؤول عن سوء حظّ الآخرين، ولكن من الذي زرعَ فيَّ هذا الالتزام بحيث لا أعمل، وأقول: إنني وبموجب كوني مسؤولاً فإنني لا أعمل، ومن الذي سيحاسبني؟ وهل أن الله موجود لكي يحاسبني؟ تقول لا.. فهل هو الضمير؟ تقول لا.. إذاً فمن هو؟.

رؤية العالم التوحيدية

ولهذا السبب نقول إن الرؤية العالمية التوحيدية تتصف بكونها «هادفة» و «ملتزمة» و «مسؤولة»، إنها هادية.

ومن خصوصياتها الأخرىٰ أنها تهدي.. أي توضح معالم الطريق للإنسان، تُنير الطريق نحو الأهداف، علاوة على كونها تبعث النشاط وتخلق التضحية.

والأكثر من كل ذلك، وكما قال العلاّمة الطباطبائي: إن أصل التوحيد يمكن أن يكون عنصراً من عناصر كل الرسالات، مثلما أصل امتناع التناقض، أصليٌّ، حيث تنتهي عند التحليل كل القضايا عنده، وبدونه لا يمكن حصول اليقين بأي أصل، أو على الأقل فإن اليقين بأي أصلٍ لا ينفي احتمال أصلٍ يناقضه، كما أن أصل التوحيد يملك هذهِ الصلاحية، حيث إنه مثل الماء الذي يروي جذور الأفكار الأخرىٰ، وهو كذلك مثل الدم الذي يحمل الغذاء إلى كل أجزاء البدن، وهو مثل الروح التي يُحيي كل الأبدان وهو القوة المحركة لأي عقيدة.

وفيما يتعلق بالهدف، يقول سارتر.. يجب على الإنسان أن لا يتوقف عند حدود معينة وعليه دائماً أن يُحطّم حدوده، وعندما يحقق ذلك فسينتقل إلى أهدافٍ أخرىٰ وهكذا يتقدّم، بمعنىٰ أنه يملك حركة لا متناهية ليست أهدافها محددة منذ البداية، بحيث يكون في حركة دائمة، مثل الذي يتحرك في طريق تنفتحُ أمامه فسحة من الأفق لا يستطيع أن يرىٰ ماذا وراءه، ولكن بمجرد أن يتحرك قليلاً ينفتح أمامه أفقٌ آخر وهكذا، ولكنه لا يعلم منذ البداية هدفه بوضوح، خصوصاً وأنه لا يريد أن يصل إلى نقطة ثابتة لأنه يعلم أنها نقطة الموت. ولكن في عقيدة التوحيد، فإنه في نفس الوقت الذي يعرِف فيه الهدف بوضوح وتشخيص تام، فإنه غير متناهي، وله قيمة فائقة خصوصاً وأن ذات الهدف لا متناهي، وهو دائماً جديد بالنسبة للإنسان ولا يبلو في أي وقت من الأوقات.

إذاً فليس كل رؤية كونية تصلح أن تكون أساساً وروحاً للعقيدة، بحيث تكون «هدفاً» لتلك العقيدة و «القوّة المحرّكة» سواء عن طريق تعيينها للغاية والهدف أو عن طريق تعيين المسؤولية.

وبعبارة مختصرة، فإن «قوّة محرّكة» وكذلك «تخلق الالتزام والمسؤولية» «وهذا بحسب الصفات الذاتية طبعاً» وأيضاً «مرشدة وهادية» تعيّن طريق الوصول إلى الهدف، وكذلك تمتلك خاصية «التنشيط»

و «الدافعة للتضحية».

وكذلك مثل الغذاء الذي يمتلك خاصية الوصول إلى كل أعضاء البدن لتحتفظ بحيويتها وأن يكون لها نفوذ وقوة مثل «الأصل» يمكن تحليل كل المسائل عن طريقه، وفي عقيدتنا فإن الرؤية التوحيدية للعالم هي التي تمتلك مثل كل تلك الخواص.

* * *

المحاضرة الرابعة

الإيمان وكمال الإنسان

محاضرة أُلقيت بتاريخ ١٥/ ٨/ ١٩٧٢

هناك مسألة أساسية وجوهرية ترتبط بالبحث حول الهدف والإيمان بالهدف في الإسلام وهي: ما هو الذي يُطرح باسم الإيمان في الإسلام ونجده في كل أرجاء القرآن. والذي يحتلّ موقع المحورية لكل الأشياء؟.

والإيمان بالدرجة الأولى طبعاً هو الإيمان بالله وبالدرجة الثانية الإيمان بالأشياء الأُخرىٰ وهذا ما يؤكّده القرآن، مثل الإيمان بالملائكة والكتب والرُسل واليوم الآخر.

فهل الإيمان من خلال الرؤية الإسلامية بحدِّ ذاته هدفٌ أم وسيلة؟.

أي هل أن وجوب أن يكون الإنسان مؤمناً وأن الإسلام يدعو الناس إلى الإيمان يشكّل بحدّ ذاته هدفاً أم أنه وسيلة لتحقيق أهدافٍ أخرىٰ؟ ومعلومٌ أن ما نقصده من الهدف، هو الهدف بالنسبة للإنسان، ولا نريد أن نقول إن الإيمان هدف إلهي أو وسيلة للأهداف الإلهية.

هل الإيمان نفسه يُكمِّل الإنسان؟ وأن الدعوة للإيمان بسبب أن الإيمان يمثل تكاملاً بالنسبة للإنسان، وأن التكامل الإنساني يتحقق عن طريق الإيمان؟ أم أن الدعوة للإيمان جاءت بسبب أن له آثاراً، وأن هذهِ الآثار نافعة للإنسان، فالإيمان إذاً نافعٌ للإنسان، أي أن له آثاراً طيبة وجميلة.

وإذا أردنا أن نبحث هذهِ الكلمة حسب اصطلاح الفلاسفة فيجب أن نقول: هل أن الإيمان يمثّل للإنسان خيرٌ أم منفعة؟ خصوصاً وأن هناك فرقاً بين الخير والمنفعة، فالخير هو الشيء الذي يضيف للنفس ذاتها كمالاً، أي أن الإنسان يطلبه لنفسه وليس لشيء آخر. والنافع هو الشيء الجيد الحسن باعتبار آثاره المترتبة عليه، أي أنه مقدمة للخير، وليس خيراً في حدِّ ذاته.

وهذا الموضوع يجب أن يكون واضحاً في المعرفة الإسلامية كعقيدة وأيدلوجية وهو: هل أن الإيمان من خلال رؤية الإسلام بحد ذاته يشكل هدفاً وخيراً، وأن دعوة الإسلام للإيمان بسبب أن الأيمان نفسه خيرٌ للإنسان بقطع النظر عن أي أثرٍ من آثاره وحتىٰ لو لم يكن للإيمان أي أثر من آثاره التي نعرِفها.

أم أن الخير شيء آخر، وأن الإنسان دُعيَ للإيمان ليكون الإيمان مقدمة للخير، كما هو المتعارف عندنا عندما نتحدث عن الإيمان، فإننا نتحدث عن فوائده وآثاره فنقول مثلاً: إن الإنسان المؤمن يكون هادىء البال لا تزلزله المصائب عند وقوعها، وعندما يكون أفراد المجتمع مؤمنين فإن بإمكانهم الاعتماد على بعضهم ويصل خيرهم إلى غيرهم، ولا يعمُّ شرهم الجميع.

وبدون شك فإن للإيمان مثل تلك الآثار والفوائد، ولكن هل أن الإيمان جيد بسبب تلك الآثار والفوائد، أم أن نفس الإيمان يُعتبر كمالاً للإنسان وخيراً وسعادة، وأن الإنسان يجب أن يكون مؤمناً من أجل الإيمان نفسه وليس بسبب ترتّب بعض الآثار عليه.

وعندما يصل البحث إلى هنا، يبرز التساؤل: بأي شيء يتكامل الإنسان؟ ومن أجل أن نفهم أن الإيمان هل هو كمالٌ وخيرٌ أم هو مقدمة للخير والكمال، يجب أن نبحث في البداية موضوع كمال الإنسان لنرىٰ الشيء الذي يتحقق به كمال الإنسان.

أين يكمن كمال الإنسان

إن تحديد وتشخيص كمال الإنسان أصعب من تحديد وتشخيص كمالِ أيَّ شيء آخر.. وأن واحدة من جملة الأمور المجهولة للإنسان هي الشيء الذي يكمن فيه كمال الإنسان، فإن أكثر أشياء هذا العالم يمكن تشخيصها بسهولة، فلو قيل لنا مثلا كيف هي التفّاحة الكاملة؟ فإن من السهل أن نُعطي جوابا على ذلك، خصوصا وأن المطلوب في التفاح والمواصفات التي تنطبق

على التفاح، تتعلق من جهة بطعمها وجمالها ولونها وشكلها، فإذا كانت التفاحة من ناحية الشكل واللون جميلة ومن ناحية الطعم لذيذة حلوة ومن ناحية الرائحة معطّرة وكانت غير مستعصية على الأسنان فإنها تفاحة كاملة.

ومن السهولة أيضاً أن نعرّف البيت الكامل، وكذلك الحصان الكامل، ولكن تعريف الإنسان الكامل أكثر صعوبة من تعريف بقية الأشياء، ولهذا يجب أن نشرح النظريات المختلفة التي قيلت حول كمال الإنسان لنعلم أيها الصحيح، وإذا لم نستطع أن نشخص الكمال اجتهاداً، فليس من أقل أن نرىٰ أيها يحظى بتأييد من القرآن الكريم وإلى أي حدّ هو ذلك التأييد.

النظريات المختلفة حول الإنسان الكامل

١ ـ الإنسان الكامل هو الإنسان المستثمر:

أ ـ المستثمر للطبيعة:

أول شيء يمكن أن يقال في تعريف الإنسان الكامل هو: إن الإنسان الكامل هو الإنسان المستثمر، أو أن الإنسان المتكامل هو الإنسان الذي يستثمر الطبيعة ومحيطه الخارجي إلى أقصىٰ حد ممكن.

الرد على هذه النظرية

من المسلم به أن هذا التعريف خطأ، فكمال الإنسان لا يتحقق بالاستثمار بحيث يحقق أكثر استفادة من الأشياء الموجودة في الخارج، وذلك:

أولاً: أننا لا نُعرف أي شيء آخر بمثل هذا التعريف، فالحصان الكامل، لا نعرفه بأنه الحصان المستثمر، وأننا نهتم بالتعريف للحصان بالنظر إلى صفاته ووضعه الخاص، أي ماذا يجب أن يملك من الصفات، فالحصان الكامل ليس هو الحصان الذي تناول العلف أكثر الليلة الماضية، ولا نقول في التفاحة الكاملة، أنها التفاحة المستثمرة للطبيعة أكثر، كالثور والهواء و...

ثانياً: أي ضمير يقبل هذا الأمر وهو أن أكثر الناس كمالاً هم أولئك الذين يستثمرون أكثر. حيث يكون ملازِماً لذلك أن أي إنسان يكون استثماره للطبيعة أقل فإنه يكون ناقصاً عن الآخرين.. ويكون الأكثر استثماراً أكثر كمالاً.. والأقل استثماراً أكثر نقصاً. وبناءً على هذا فلو كان عندنا شخصين أحدهما مثل معاوية كل همه انصرف نحو تحقيق أكبر قدرٍ من الاستثمار والاستفادة من نِعم الدنيا وفي كل الظروف والوسائل المتاحة، حيث رُوي أنه قال في أواخر عمره: «إننا أخطأنا بنعمةِ الدنيا» وكان الواقع كذلك، فقد جاوز الثمانين عاماً، قضىٰ منها أربعين عاماً حاكماً على الشام، منها عشرون سنة والياً، وعشرون أخرىٰ بعنوان خليفة المسلمين.

والآخر مثل علي بن أبي طالب (ع)، الذي عاش في الحياة زاهداً وكان له في ذلك فلسفة وحكمة، بغض النظر عن أن الحكمة من ذلك أنه أراد أن يعيش حُرّاً، أو أن يكون مؤثراً، أو أن يواسي الآخرين، أو أن لا يكون أسيراً للدنيا، وأن يحفظ قلبه ميداناً للقضايا الروحية والمعنوية.. ومهما كان.. فقد كان ما استفاده أمير المؤمنين من الدنيا ٥١ كيلو من خبز الشعير.. فهل يكون الأول أقرب إلى الكمال، ويكون الثاني إنساناً ناقصاً لأنه انتفع بالقليل من نِعم الدنيا؟.

وإذا ما اعتقدنا بذلك فقد جعلنا الإنسان أكثر حقارة من الحيوان، لأننا لا نقيس كمال أي حيوان بمقدار ما يتناوله من الطعام.

وإذا ما لاحظنا جيداً فإننا نجد الكثير من الأشخاص لا يفكرون أساساً إلا بالاستثمار، وكل شيء جيد إذا كان مقدمة لهذا الاستثمار، وإذا لم يكن كذلك فهو سيء، وكأنّ الغاية والكمال الأصلي للإنسان هو في الاستثمار.. وهذا أمر ليس بالصحيح.

ب ـ الإنسان الكامل هو الإنسان المنتفع في الآخرة

وهنا يأتي مطلبٌ آخر وهو دقيق وحساس، وهو: ليس هناك من يعتقد بهذه الصراحة أن كمال الإنسان هو في الاستفادة الأكثر من الطبيعة والتي يلزم

معها الانصراف أو إلغاء أي نوع من المعنويات والعمل الإنساني، بحيث يكون الإيثار عملاً خاطئاً لأنه يُمثّل تنازلاً، ولكن المطلب الآخر الموجود في الكثير من الأذهان هو أن الانتفاع من الدنيا ليس محدداً لكمال الإنسان بل هو في الانتفاع من الآخرة. فكيف؟.

أي أن نقول إن كمال الإنسان يكمن في الاستفادة والاستثمار، ولكن في الاستفادة من الآخرة. ولهذا السبب لا نقول إن الاستثمار ليس في الدنيا لأنه يكون سبباً للحرمان في الآخرة، ولكن لا مانع أن يكون الانتفاع والاستثمار في الآخرة.

إن كمال الإنسان يكمن في نفس الأكل والتنعّم بالنعم الإلهية ولكن غاية ما في الأمر أن حدّه الأعلى ليس متيسّراً في الدنيا. وأن حدّه الأعلى متوفر وميسّر في الآخرة. ولذلك فإن الزُهّاد العوام يعبدون الله من أجل أن يحصلوا على نعيم الآخرة.. أفليس العبادة من أجل الجنة جزءاً من العبادة من أجل الحصول على النفع أكثر؟.

العبادة مُقدّمة للنفع والاستثمار، ومن الطبيعي أن يكون كل ذي مقدمة أفضل من مقدمته.. فالعبادة إذاً وسيلة فقط للحصول على النفع أكثر.

يقول ابن سينا في الشكل التاسع من الإشارات: «العبادة عند غير العارف معاملة كأنه يعمل في الدنيا لأُجرةٍ يأخذها في الآخرة هي الأجرُ والصواب».. والعامل عندما يعمل يكون هدفه أخذ الأجرة مالاً... ولو لم يكن المال حاضراً فإنه لن يكون مستعدّاً أبداً للعمل.. وهذا الشخص أيضاً يعبُد الله ليأخذ أجره في الآخرة، وبناءً على هذا فإن كمال الإنسان يكمن في الاستثمار، ولو لم يكن ذلك في الدنيا وأنه في الآخرة.

الرد على هذهِ النظرية

إن من المُسلّم به في منطق الإسلام أن العبادة من أجل الحصول على الأجر في الآخرة هي عبادة ناقصة جداً، أي العبادة بمقدار ما يطلبه الإنسان

من الله، ويتوجه إلى الله طالباً منه الآخرة، ويعبد الله طاعة لأمره ليعطيه الله بدلاً عن ذلك الآخرة، إنها عبادة ولكنها عبادة تتخذ من الله وسيلة، وقد وردت الإشارة في كلام الأئمة إلى هذا الموضوع وفي نهج البلاغة أيضاً حيث يقول (ع): «**قومٌ عبدوا الله طمعاً وتِلك عبادة الأُجراء، وقومٌ عبدوا الله خوفاً وتِلك عبادة العبيد، وقومٌ عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار**»[1].

ولأمير المؤمنين (ع) عبارة أكثر صراحة من كل ذلك حيث يقول: «إلهي ما عَبَدتك خوفاً من نارك ولا طَمعاً في جنّتك بل وجدتك أهلاً للعبادة فَعَبَدتُكَ»[2].

فهذه إذاً واحدة من النظريات حول كمال الإنسان وهي نظرية تقوم على أساس التمتع والمنفعة، وهي ليست صحيحة حتىٰ لو اعتبرناها مستلزمة لنفي أي فضيلة في الدنيا، وأوكلنا الحصول على المنفعة إلى الآخرة، وإلاّ فإن الواجب هو أن نعتبر أفضل العبادة عبادة المنفعة في حين أننا علمنا أن عبادة المنفعة هي أدنىٰ درجات العبادة. إذاً لا يمكن القول إن كمال الإنسان يكمن في استثماره أكثر من غيره.

وتوجد نظريات أُخرىٰ، بعضها ماديٌّ والبعض الآخر معنوي، والنظريات المادية تعود في نهاية المطاف إلى نظرية المنفعة والاستثمار، أما النظريات الروحية فهي:

٢ ـ نظرية العارفين

أولى هذه النظريات وأكثرها جدارة بالبحث والتمحيص هي نظرية العارفين، والعرفاء أساساً طرحوا مبحث «الإنسان الكامل» تحت نفس هذا العنوان ولعل من الممكن القطع أن العارفين أخذوا هذه النظرية من الأديان،

---

(١) نهج البلاغة الحكمة ٢٢٩ ـ إن قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار وإن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد وإن قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الأحرار.

(٢) نهج البلاغة.

واستوحوا من الأديان مسألة الإنسان الأول «آدم» وبشكل عام موضوع «النبي» و «الولي» والإنسان الكامل في آخر الزمان «المهدي الموعود» وهذه كلها موجودة في الأديان. .

ماسينيون الكاتب المعروف ألّف كتاباً تحت عنوان «الإنسان الكامل في الإسلام» وترجمه إلى العربية عبد الرحمٰن بدوي. . حيث يقول ماسينيون: إن فرضية الإنسان الكامل ليس ميراثاً يونانياً، فالفلسفة اليونانية لم تتحدث عن الإنسان الكامل وليس لها رأي حوله.

وفي العالم الإسلامي طرح العارفون موضوع الإنسان الكامل وخصوصاً منهم محيي الدين بن عربي حيث بحث في هذا الموضوع كثيراً.

وألّف الآخرون كتباً باسم الإنسان الكامل، منهم عبد الكريم الديلي حيث ألّف كتاباً باسم «الإنسان الكامل» وهو مطبوع، وكذلك عزيز الدين النسفي، ألّف كتاباً بعنوان «الإنسان الكامل» وكتب السيد محمد البرقعي «شقيق المرحوم السيد حسن البرقعي» كتاباً تحت نفس العنوان.

والعارفون يملكون ووفقاً لمسلكهم نظرية واضحة حول كمال الإنسان، والإنسان الكامل، ولو كانت غير مقبولة عند الآخرين، فهؤلاء قاطعون جازمون في حكمهم. ولهم في ذلك كلام عجيب.

فالعارفون يعتقدون أن الحقيقة واحدة وهي الله، وهم لا يعرفون حقيقة غير الله، وأن الأشياء الأخرىٰ إنما هي ظل للحقيقة، وكل شيء يأخذ حقيقته باعتبار انتسابه إلى الله، وأن كل شيء في نظر العارف هي اسم وصفة لله، وإننا عندما نعتقد أن هناك أشياء في مقابل الله، وأن الله شيء وتلك أشياء أخرىٰ، فإننا مشركون وفي جهل محض فإذا مُتنَا ونحن على هذهِ الحال فإننا نكون قد متنا ونحن في ظلام، أي أننا لم ندرك الحقيقة.

والإنسان يكون كاملاً عندما يدرك الحقيقة ويصل إليها. . وعندهم اصطلاح هو «الوصول إلى الحق» وهو ليس بمعنىٰ «والعياذ بالله» حلول الله الحق في الإنسان لأنه مستحيل حلول الله أو اتّحاده بالبشر، ويقول

الشبستري: الحلول والاتحاد مستحيل هنا، لأن الوحدة هنا ضلال.

فإذا قلت «بالحلول» لله فقد قلت بوجود ثاني لله وهذا عين الشرك، وهو شيء يجب أن يفرّ الإنسان منه، وإذا قلت «الاتحاد» فذلك يعني اتحاد الاثنين أيضاً، فهو «العارف» لا يعترف بالشيئية للشيء لأنه يكون ثانياً لله، فالخلق عنده تجلي، وعملية الخلق تعني الظهور.

وبناءً على هذا فإن معنىٰ الوصول هو الذوبان فيه، والذوبان يعني، أن الإنسان يصل إلى إدراك الحقيقة كما هي، وعندما يدرك نفسه فإنه يكون قد أدرك قبلها الحقيقة، فإنه يدركه قبل كل شيء «ما رأيت شيئاً إلا ورأيتُ اللَّهَ قَبلَهُ وبعدهُ ومَعَهُ» ولا يبقىٰ بنظره أنا ونحن وهذا يعني الذوبان.

إذاً فإن أساسيات عقيدة العرفاء هي أن الحقيقة واحدة وليس أكثر، وكل شيء موجود لا يكون للحقيقة ثانياً، بل إن كل الأشياء تجليّات وأسماء وصفات الله، وكمال الإنسان هو بالوصول إلى الحقيقة، والوصول إلى الحقيقة يعني أن الإنسان يصل إلى الحالة التي يستطيع معها أن يُدرك هذه الحالة كاملاً وهي أنه يراه «الله» في كل شيء ومع كل شيء «وهو معكم أينما كُنتم» ويراه مع كل شيء وقبل كل شيء، ويرىٰ وجود كل شيء به، ويراه في كل شيء حتىٰ نفسه وعندها لا يبقىٰ معنىٰ وموقع لـ «أنا» وهذا هو نفس معنىٰ «الفناء» الذي يقولون به، وعندما يصل الإنسان إلى هذه الحالة وعاش حالة الذوبان و «الفناء» والاتصال فإنه يصير يد الله الباسطة كما يقول العارفون، والعُرفاء يعتقدون بالوصول، و «السلوك» هو هذا، «سيرٌ إلى الله» (فنحن نقول بـ «التقرّب» إلى الله بمعنىٰ الاقتراب) فهم يعتقدون بالسير والسلوك والحركة نحو الله وطي منازل القرب، وهم يقولون بنظام خاص لتلك المنازل، مثل المنازل المكانية التي إذا لم يُطوَ المنزل الأول فلا يمكن الوصول إلى المنزل الثاني، والعارفون عيّنوا المنازل التي يطويها الإنسان حتىٰ يصل إلى الحقيقة، وكمال الإنسان عندهم واضحٌ جداً، والإنسان الذي لم يصل إلى الحقيقة هو إنسانٌ ناقص، وهو محجوبٌ و «غير واصل»، وأن إنسانية الإنسان واستعداده الأصلي هو أن يعرف الحقيقة ويصل إليها. والذي

لم يصل إلى الحقيقة فإنه متخلف عن الطريق، وما يُكوّن هذا السير بمنظرهم هو «العشق» و «الحب» و «الأُنس» والطريق، طريق القلب وليس طريق الفكر والفلسفة . .

وبنظرهم فإن كل كمال آخر يتشعب عن هذا الكمال، وكل شيء آخر بذلك الاعتبار. كمالٌ أما أن يكون طريقاً للوصول إلى هذا الكمال أو أنه ناشيء عن هذا الكمال، فعلىٰ سبيل المثال؛ هل يُعتبر الزهد كمالاً بالنسبة للإنسان؟ يقولون نعم خصوصاً وأنه شرطٌ في هذا الطريق، وهل التواضع كمال؟ نعم: خصوصاً وأنه شرط في هذا الطريق.

الأشياء التي هي من محاسن الأخلاق، وكذلك الهداية والإرشاد، كلها جيّدة، لأنها من آثار هذا العمل، وعندما يصل الإنسان إلى الحقيقة يكون مظهراً لاسم الهادي، فيهدي الآخرين ويُرشدهم، وهذا، رأي واضح وهو أن الكمال مساوٍ للوصول إلى الحقيقة، الحقيقة الواحدة، وكمال الإنسان يعني الوصول والاتصال بالحقيقة.

٣ ـ نظرية الحكماء والفلاسفة الإلهيين

للحكماء والفلاسفة الإلهيين وجهة نظرٍ أخرىٰ حول كمال الإنسان، وهم يُعرِّفُون الإنسان الكامل بصورة أخرىٰ، حيث يختلف قليلاً عن تعريف العارفين.

ولا يوجد في أقوال الحكماء والفلاسفة كلمات الحقيقة الواحدة والوصول والسير والسلوك والفناء بالصورة التي يذكرها العارفون، فكمال الإنسان عند الفلاسفة يتحقق بشيئين؛ الأول: إدراك الحقائق، وبعبارة أخرىٰ (الحكمة) «كلمة العلم لا تفي بالغرض»، فالعارفون يقولون الحقيقة، والفلاسفة، يقولون الحكمة، والحكمة هي إدراك حقائق الأشياء كما هي، وإدراك النظام الكوني العام كما هو.

ومن الطبيعي فإن إدراك الجزئيات لا يقال له حكمة، وهو يدخل ضمن

خانة العلوم، فمثلاً: معرفة خواص التفاح يُعتبر علماً وليس حكمة.

أو فيما يتعلق بمعرفة أحد المنازل، فأحياناً تعرف هيكله الخارجي وعمومياته وأحياناً أخرىٰ تكون مطّلعاً على جزئياته، أو على سبيل الفرض فأن أحد أزقّة طهران يعرفها جيداً مثل سائق «التاكسي» ولكنه في نفس الوقت لا يملك إطلاعاً عاماً عن طهران، وإذا ما سألته من أين تشرب طهران الماء فإنه لا يعلم، أو ما هي مصادر الطاقة التي تغذّي طهران فإنه لا يعلم، أو عن كيفية عمل البلدية أو الشرطة فإنه لا يعلم. فالحكيم، يرىٰ أن كمال الإنسان يكمن في معرفته الكلية للعالم، المعرفة الصحيحة والسليمة بحيث يكون «عالماً علمياً» فيكون العالم عنده عالماً إنسانياً عينياً، ويكون هو عالِماً علمياً ففي تعريف الحكمة بلحاظ الغاية قيل:

«صيرورة الإنسان عالَماً عقلياً مضاهياً لِلعالَم العيني» فالحكمة عبارة عن صيرورة الإنسان إلى عالم علمي، وعالم عقلانيَ مطابق لِلعالَم العيني.

وعلى سبيل المثال: في العَالم العيني، فإن واجب الوجود، هو نظام كليّ لعوالم المجردات والمتوسطة والمادية.

إذاً فالإنسان الكامل عند هؤلاء هو الإنسان الذي أوتي الحكمة.

ومن الممكن أن يكون هناك بحث في مصداق الحكمة، ولكن لا نحتاج إلى هذا البحث في أصل الحكمة، والقرآن الكريم يقول ﴿ **يُؤْتي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ ومن يؤتَ الحِكمة فقد أوتي خيراً كثيراً..** ﴾[1].

فكمالُ الإنسان عند الحكماء يكمن في الحكمة من جهة وفي العدالة من جهة ثانية.. ومقصودهم من العدالة، العدالة الأخلاقية (العدالة الاجتماعية تابعة للعدالة الأخلاقية)، أي أن يكون هناك توازن بين قوىٰ الإنسان وغرائزه، وأن تكون تلك القوىٰ والغرائز تحت تحكّم العقل، وبعبارة

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٩.

أخرىٰ:

سيطرة العقل على جميع القوى الشهوانية والغضبية أو بتعبير اليوم على جميع الغرائز والميول والرغبات بحيث يقوم العقل بإعطاء كل قوة حظّها وحصتها الطبيعية بدون إفراط أو تفريط، فلا يضيّع حق قوّة من القوىٰ، ولا يمنحها أكثر مما تستحق.

والحكماء يعتقدون أن للإنسان جانبين: جانب اليد العليا الملكوتية، وجانب اليد البدنية، ففي جانب اليد العليا الملكوتية يكون كمال الإنسان في الحكمة، وفي جانب اليد البدنية يكون كمال الإنسان في العدالة، ويسمّون الأولى بكمال العقل النظري، والثانية بكمال العقل العملي.

إذاً فالإنسان الكامل عند الحكماء، هو الإنسان الذي يتصرّف عقله بحكمة في القضايا النظرية، وهو إنسان معتدلٌ في أخلاقه في المسائل العملية، لأنهم يعتقدون أن كل الأخلاق الحسنة هي ما اعتدل منها، أي أن الأخلاق الحسنة، هي الأخلاق التي تأخذ عندها كل قوّة وغريزة حقّها باعتدال.

وعلى أساس نظرية الحُكماء، فإن الحكمة والعِلم «خصوصاً العلم الذي هو أساسٌ للحكمة» بذاتهما كمالٌ «طبعاً العلم بصورة مطلقة، مع بقاء الحكمة الجزئية على حالها»، إذاً، فالحكمة الكليّة كمالٌ، وليس مقدّمة للكمال.

وكما قلنا في البداية فيما يتعلق بالإيمان، هل أنه هدف أم وسيلة، فإننا الآن نقول عن الحكمة، هل هي للإنسان هدفٌ أم وسيلة؟ وهل العلم للإنسان هدف أم وسيلة؟ أم أنه هدف ووسيلة؟.

هل العلم كمالٌ للإنسان؟ طبعاً إذا كان كمالاً فإنه تترتب عليه منافع، ومن الطبيعي فإن العلم جيد للنتائج المترتبة عليه ولو لم يكن مصحوبا بنتائج جيدة لما كان نافعاً أو مفيداً، وكل علم كانت منفعته أكثر فهو أفضل، والذي منفعتهُ أقل فإن قيمته تكون أقلّ.

٤ ـ نظرية الهنود

وهناك نظرية أخرىٰ تقول إن كمال الإنسان يكمن في «العاطفة» أي «المحبّة» أو على الأقل فإن المحبة هي ركنٌ مهم من أركان الكمال.

فالكمال عند الحكماء، يكمن في «الحكمة والعدالة» وعند العارفين في «الحقيقة» وهي في هذه النظرية وهي نظرية أخلاقية يكمن في «المحبّة» أي أن الإنسان الكامل هو الإنسان الذي يحبّ غيرهُ أكثر.

فكل إنسان يحب غيره من الناس أو على الأقل من الأحياء غير نفسه ويعطف عليها فهو أكثر كمالاً، وكلما كان الإنسان مسلوب المحبة تجاه الآخرين، وليس له علاقة محبة بوجود آخر غير نفسه فإنه يكون أسوأ وأكثر نقصانا، لأنه يدور حول محور أخلاق فاسدة هي عبادة الذات، فالإنسان يكون ممدوحاً بنفس النسبة التي يتخلىٰ بها عن عبادة ذاته ومنحِهِ الحب للآخرين.

وهذهِ إحدىٰ النظريات التي يعتمد عليها الهنود وهو اعتماد في محلّه.

وقد اعتمد غاندي في كتابه «هذا هو مذهبي» على هذه النظرية بوضوح ومن الطبيعي فإن الهنود يعتقدون بـ «الحقيقة» وكذلك «المحبة» وقد انتقدوا الحضارة الغربية لأنها أبعدت هذين الشيئين.

٥ ـ كمال الإنسان في الجَمال

وهناك نظرية أُخرىٰ تقول إن كمال الإنسان يكمن في الحسن والجمال، ولكن ليس مجرد الجمال البدني بل هو الجمال الروحي أكثر، وبعبارة أُخرىٰ «الذين يعتقدون بهذه النظرية» فإن كمال الإنسان يكمن في الفن والأعمال الجميلة الناشئة عن روح وحِسّ مرهف، وهم يضعون كل شيء تحت عنوان الرهافة والجمال. حتىٰ الأخلاق التي نقول نحن أنها جيدة، فإنهم يقولون لأنها جميلة فهي كمالٌ.

وعند هؤلاء فإن العلم جمالٌ، وكذلك الحقيقة لأنها جميلة فهي كمالٌ، وبناءً على هذا فإن كمال الإنسان يكمن في الجمال.

٦ ـ كمال الإنسان في القدرة

والنظرية الأخرىٰ التي يمكن أن يقال إنها المتداولة في الغرب حيث يبرز فيها الجانب الماديّ لتحديد كمال الإنسان «في النظريات السابقة كان كمال الإنسان يكمن في الجانب الروحي، الحقيقة، الحكمة والعدالة، المحبة، الجمال، وليس أي واحد منها ماديّ».

حيث تقول النظرية إن كمال الإنسان يكمُن في قدرته، فالإنسان الكامل عندها هو الإنسان القادر المقتدر، فكلما كان الإنسان أكثر قدرة وقوة وأكثر تسلّطاً على المحيط الخارجي أي الطبيعة وكذلك البشر، فإنه يكون أقرب إلى الكمال، والتكامل الداروينى قام أيضاً على هذا الأساس.

فالموجود الكامل عند داروين هو الموجود الأكثر قوّة، أي الموجود الذي يستطيع أن يحافظ على نفسه أفضل، والموجود الذي يستطيع أكثر القضاء على خصمه في مسيرة التنازع على البقاء.

ولهذا السبب فقد اعترضوا على داروين أنه محىٰ الأخلاق تماماً باعتماده على «أصل التنازع على البقاء» لأن الأخلاق بموجب هذا التنازع تتعرض للاضطراب والتزلزل. وهذا هو الشيء نفسه الذي سخّر الغرب وسائل إعلامه له مدّعين أنهم اكتشفوه، وأنهم محوا أخطاء آلاف السنين، وهو أن الآخرين عندما ذهبوا باحثين عن العلم ما كانوا يفكرون أنهم لماذا يطلبون العلم، ولكننا نقول إن العلم ينفع الإنسان وأنه يزيد من قدرته وتسلطه على الطبيعة، ولهذا فقد توجهوا نحو «العلم التجريبي»، العلم الذي يعطي للإنسان أدوات أفضل.

وعلى هذا الأساس حصل التمدّن والتقدم الصناعي ـ وهذا التقدم صحيح ولكنه ضرر إذا كان أكثر من تحقيق الفائدة للإنسان، خصوصاً وأن

مسألة الحقيقة والحكمة اللذان هما من عناوين الكمال وكذلك العِلم قد سقطت كلها من موقعها المقدس.

فالمحبّة التي كانت تُعتبر من الكمال قد سقطت من موقعها المقدّس، وأصبح كل شيء مقدّمة للقدرة، وهذا، غيّر مسيرة البشريّة، فمنذ ذلك اليوم، ومهما ادّعت البشرية أنها تعتقد بأي شيء معنوي فإنها لا تستطيع ذلك، وإذا ما تحدثوا عن المعنويات، فإنهم من الناحية العملية يتصرفون خلاف ذلك.

وقد قلنا سابقاً أنهم يعترضون على «نيتشه» ويصفون أفكاره بالتطرف، حيث ذكر أشياء عجيبة، ولكن «وفق هذا الطراز من الفكر» فليس هناك أي مجال للاعتراض، فقد كان نيتشه أكثر صراحة.

إن من الأصول الملازمة لتغيير مسيرة العِلم الذي تحقق عن طريق بيكن و... هو أن نقول في الأخلاق كما قال نيتشه، فالنتيجة المنطقية للطريق الذي سلكه بيكن و... وهو أن العلم يجب وضعه فقط في خدمة القدرة، وأن كمال الإنسان يكمن في القدرة، وهذا نفس كلام نيتشه في الأخلاق والمسائل الاجتماعية.

المحاضرة الخامسة

دراسة النظريات المختلفة عن كمال الإنسان على ضوء النظرية الإسلامية

محاضرة أُلقيت بتاريخ ٣٠/ ٨/ ١٩٧٢

كان بحثنا هو الهدف الأساسي للإسلام حول الإنسان، وما هي نظرية الإسلام في الكمال الإنساني؟ وكيف يكون الإنسان كاملاً بنظر الإسلام؟.

ومن الطبيعي، فإن أي عقيدة عندما تريد أن تبني أتباعها، فإنها تفعل ذلك عن طريق توضيح الطريق وتحريضهم للالتزام به، ولا مجال لها لفعل لذلك غير هذا الطريق. فهي إذاً مضطرة أو مجبرة لتوضيح الهدف للاتباع وأمرهم بالتحرك نحوه.

وهذا هو هدف الإسلام من الإنسان الكامل طبعاً وهو مساوٍ للهدف الواقعي للإنسان من أعماله.

وبناءً على هذا فإننا عندما نبحث عن الإنسان الكامل من خلال وجهة النظر الإسلامية فإننا في الواقع نبحثُ عن الهدف الأساسي في الفكر الإسلامي.

ومن أجل أن يتّضح الموضوع بشكل كامل، فقد ذكرنا عدّة نظريات حول الإنسان الكامل وكمال الإنسان، والآن نذكرها بشكل مُختصر لكي نرىٰ هل تنطبق على إحداها نظرية الإسلام أم لا، وهل أن للإسلام نظرية خاصة في الموضوع؟.

قلنا في الرؤية الكونية العرفانية ونظرية العرفانيين الذين بحثوا قبل الجميع موضوع «الإنسان الكامل» والذين كان لهم الأسبقية في وضع هذا العنوان أيضاً، أن الحقيقة عندهم واحدة وهذه الحقيقة الواحدة تساوي ذات الحق، وأن المخلوقات هي تجليّات لذات الحق على نحو من الأنحاء، أي أنها ليست متباينة مع ذات الحق، وأن الإنسان هو المخلوق الأجمع أو

حسب قولهم. إنه أكمل مظهر للأسماء والصفات الإلهية، وأن كماله يتم بالرجوع إلى أصله. إذاً فهؤلاء يرون أن الحقيقة واحدة أي ذات الحق وأن غير ذات الحق هو ظل له، وهم بالنسبة لأنفسهم أمور حقيقية، أما علاقتهم بذات الحق فهي حسب اصطلاحهم ليست بمنزلة نسبة الشيء إلى الشيء، بل هي نسبة الشيء وظلّه. فهو الحق المطلق وليس في مقابله أي شيء حق.

وكذلك فهم يعتقدون أن بإمكان الإنسان «الوصول» إلى الحق أو حسب تعبيرهم «الفناء» في الحق، وأن الإنسان في مقام التشبيه، موجودٌ منفصل عن أصله وأنه يعيش غريباً وأن كماله وسعادته هو أن يَعود إلى وطنه الأصلي وهو العودة إلى ذات الحق «إنا لله وإنّا إليه راجعون».

كما أن هؤلاء يعتقدون بالطريق والواسطة، وأن الطريق هو كل وجود الإنسان أي قلب الإنسان وتطوراته وتحولاته وهم يقولون إن الإنسان يمرّ عبر الحُجب حتىٰ يصل إلى الوحدة الكاملة، وأن واسطة هذا الطريق، أي الواسطة التي يركبها في هذا الطريق هي العشق والعبادة وتزكية النفس...

ولكن بالنسبة لأصحاب الحكمة الإلهية فإنهم لا يطرحون هذا الفكر، فمن وجهة نظرهم أن جوهر الإنسان يكمن في قوته «العاقلة»، فالإنسان الواقعي هو القوة العاقلة له وما بقي منه بمثابة الفروع والأغصان.

فكمال الإنسان عندهم عبارة عن كمال القوّة العاقلة، ونظراً لأن «القوة العاقلة» لها جانبان «نظري وعملي»، فإن كماله في الجانب النظري يكمن في «الحكمة»، وفي الجانب العملي يكمن في «العدالة».

وقصدهم من العدالة هو أن يتحكم العقل بوجود الإنسان.

ولأفلاطون نظرية في المجتمع حيث يعتقد بالمدينة الفاضلة حين يكون «الفلاسفة حكاماً على الناس ويكون الحُكّام على الناس فلاسفة»، والحكماء يطبّقون نفس هذه الفرضية على حركة الفرد، ويقولون: إن الفرد يحقق السعادة عندما يكون في داخله فيلسوف يحكمه والذي يحكمه فيلسوف. أي أن تكون القوة العاقلة، أي القوّة المفكّرة عند الإنسان هي القوة الحاكمة على

وجود الإنسان وليس أي قوّة أُخرىٰ. . وليس في ما يطرحهُ الحكماءُ حديث عن مسألة الوصول إلى الحقيقة و. . فحديثهم عن الفكر والتفكير وليس القلب والروح، وطريقهم الفهم والتفكير، من فكرة إلى أُخرىٰ، والواسطة هي قوة العقل أيضاً، حيث يجب طي هذا الطريق مع أدوات هي الواسطة والعقل والمنطق والاستدلال.

وقُلنا أيضاً، إن مجموعة أُخرى ترىٰ أن كمال الإنسان يكمن في «المحبّة»، والإنسان الكامل عندهم هو الذي يكون «وجوده» بالنسبة للآخرين «لا وجود» وأن يتحرر من ذاتيته، ويحب الآخرين كما يحب نفسه، وبناءً على هذا فليس هناك من فاصلة بينهُ وبين الآخرين، فهو يطلب السعادة والفرح والسرور للآخرين مثلما يطلبه لنفسه، وعندما يدور الأُمر بينهُ وبين الآخرين، فإنه يقدّم الآخرين على نفسه، إذاً فكمال الإنسان في المحبة. . وعلى هذا الأساس فإن هذهِ المدرسة تعتمد أساساً على «العواطف الإنسانية»، ويقولون: إن هذهِ العواطف عندما تنمو عند الإنسان فإنه يصبح إنساناً كاملاً.

وتعتمد مدرسة أخرىٰ على «الجمال» وترىٰ أن كمال الإنسان يكمن فيه، ليس فقط جمال الجسد فهم لا يضعون قيمة كبيرة، بل هو الجمال المعنوي، ولذلك فإن الأخلاق العالية يعتبرونها كمالاً فهي جمال وفضيلة.

ومن هنا نشأت مدرسة سقراط في الأخلاق «مدرسة الأخلاق»، فالشيء الفلاني «فضيلة» أي أنه يدخل في باب «الحسن العقلي» أو «الجمال العقلي».

ومن هنا فإن هذه المدرسة تقيّم الأخلاق على أساس الحسن والقبح العقليين وعلى أساس الفضيلة، فهي تقول إن الصدق حسنٌ لأنه جميل، ولا توجد هناك كلمة أفضل وأكمل من كلمة الحُسن، والحسن في الأمور العقلية مشابهة للحُسن في الأمور الحسيّة. والعلم عند هؤلاء كمالٌ لأنه جميل، أي أن الجهل رذيلة وقبيح والعلم جميل، وكذلك القدرة.

ولذلك فالأخلاق السقراطية التي تضع كل شيء في قطبين أحدهما الفضيلة، والآخر رذيلة وتعتمد على القبح والحسن العقليين، تعود في نهاية الأمر إلى نوع من الجمال العقلي، فالشعر والفن والإبداع. . . كلها في الواقع تعبّر عن خُلق جميل، وتعود إلى الجمال، مثل خالق الجمال، فإنه إن لم يكن جميلاً لا يستطيع أن يخلق الجمال، ولو لم تكن روح الإنسان جميلة فإنها لا تستطيع أن تنشد الشعر الجميل، أو الرسام يصوّر الجمّال.

ومعروف عن أحد سلاطين القاجار، أنه قال يوماً شطراً من بيت شِعرٍ، ثم لم يستطع إكمال العجز، فأرسل على الشعراء وطلب منهم أن يُكملوا البيت، فقال كلٌ منهم شيئاً حتىٰ فاز أحدهم بإكمال البيت.

وكان الشطر الأول الذي قاله السلطان «في العالم لم يرَ أحدٌ مثل جمال يوسف» فلم يستطع إكماله، فقال كل واحد من الشعراء شيئاً حتىٰ قال شاعرٌ منهم «الذي عنده حسنُه خلق يوسف» وكان هذا أفضل من كل أقوال الآخرين.

والواقع هو كذلك، فخالق الجمال إذا لم يكن متمتعاً بالحد الأعلى من الجمال، فإنه لن يستطيع أن يخلق ولو نُسْعَاً من ذلك الجمال.

وبناءً على هذا فإن الذي يقول أو ينشد الشعر الجميل واقعاً فيوجد الأثر الجميل يكشف عن وجود الجمال في روحه بشكل من الأشكال، وعلى قول هؤلاء إنه موجود على نحو الوجود العُلْوِيّ.

والنظرية الأخرىٰ التي تحدثنا عنها هي نظرية الاستثمار والمنفعة المادية، التي تعود طبعاً بنفي كمال الإنسان ووجود الإنسان الكامل، خصوصا وأنهم يقولون إن هدف الإنسان في الحياة يجب أن يكون العيش بمعنىٰ المنفعة.

وأساساً فإن هدف الإنسان في العالم يجب أن يكون الحصول على المنفعة أكثر، وأن كل شيء قياسا إلى منفعة الإنسان هو شيء جيّد، ولذلك

فإن العلم جيد لهذا السبب فهو وسيلة للحصول على منفعة أكثر، أي أنه يمنح الإنسان القدرة والقوة التي هي منشأ المنفعة.

إذاً فتكامل الإنسان هو: التكامل في الحصول على المنفعة، والتكامل فيمن توفرت فيه الشروط أفضل وأكثر من أجل «الاستفادة أفضل».

وإن سير البشرية قد اختط هذا الطريق منذ عهد بيكن حتىٰ هذا اليوم تقريباً، وخصوصاً اليوم عندما يقولون إن المجتمع قد تقدم وتطوّر وتكامل فأي شيء ينصرف إليه الذهن؟ هل المجتمع أصبح قريباً إلى الحقيقة؟ أو حصل على الإيمان؟ أم وصل إلى الحكمة والعدالة أكثر؟ أم وصل أكثر إلى المحبّة؟ كلا، بل المجتمع أصبح نفعياً أكثر، وصل إلى الصناعة أكثر، وإلى العلم الذي أوجد هذهِ الصناعة.

والصناعة أيضاً قامت بدور تنظيم حياة الإنسان وجعلته ينتفع أكثر في الحياة.

وهؤلاء لا يرون في المنفعة أكثر من المنفعة أو الاستفادة الحيوانية أو النباتية، وهم يعتقدون بها بالمقدار الذي تؤمن سلامة البدن وهذا الأمر مُشترك بين الإنسان والحيوان والنبات، وأن تكون تغذية الإنسان صحيحة وهذا أمر مشترك بيننا وبين النبات، وأن يكون الإنتاج صحيحاً وهذا أمر مشترك بيننا وبين النبات، وأن تكون الرغبات الجنسية للبشر صحيحة وهذا أيضاً أمرٌ مشترك بين الإنسان والحيوان، وهم لا يقولون بمنفعةٍ أكثر من هذه المنفعة، إذاً فلا وجود للكمال الإنساني في ما وراء الكمال الحيواني والنباتي.

والعلم أيضاً للإنسان بمثابة القرون للحيوان، أي أنه وسيلة للصراع ضد الطبيعة أو ضد الإنسان الآخر.

هذهِ هي النظريات المختلفة حول كمال الإنسان.. والآن لنرَ ماذا نفهم من الإسلام (وهذهِ مسألة جديرة بالاهتمام، خصوصاً وأنها لم تُطرح من قبل..».

هل أن الإسلام دعىٰ إلى الحقيقة بذلك المعنىٰ الذي ذُكر أم لا؟.

نحن لا نستطيع القبول مئة بالمئة بما قاله العرفانيون، ولكن ما هو موجود والذي يقول به الإسلام هو أن الإله الذي يعتقد به الإسلام ليس مجرد موجود من الموجودات، غاية الأمر أنه بمنزلة الأب للموجودات الأخرىٰ التي خلقها، خصوصاً وأن هناك سؤال يطرح، وهو: كيف سيكون هذا الإله بعد إيجاد الموجودات؟.

هل هو مثل الأب الذي يوجد الطفل ويقف إلى جنبه؟.

أم أن الرزّاق؛ بهذا المعنىٰ: أن تكون أرزاق عدد من الناس بيد شخص واحد؟ أم أنه مثل المحرّك الأول عند أرسطو والذي هو أول محرّك لكل حركات العالم ...؟.

ليس كذلك... فالمنطق الإسلامي حول الله أسمىٰ بكثير من هذهِ الأقوال.

فالله وجود لا يمكن أن تُعدّ الأشياء الأُخرىٰ في مقابلهِ شيئاً، فإذا كان هو «الحقيقة» فالآخرين يجب أن يكونوا «سراباً» وظلاً، يعني هو موجود كما هو موجود، وكل شيء للآخرين له، ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾[1]... والتعبير القرآني عن الله هي كذلك أيضاً، فالحق المطلق هو.. يقول عز شأنه ﴿ **سَنُريهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أَنْفُسِهِمْ حتىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق** ﴾[2] وليس «أنه حق» حيث هناك فرق كبير بين التعبيرين. والواقع أن المؤمن عندما يستقرّ إيمانه بالله في قلبه، فإنه كل شيء في نظرهِ يصبح لا شيء، لأنه لم يجد أو يعثر على شيء في مقابل الأشياء الأخرىٰ، بل إنه عثر على شيء؛ كل الأشياء

---

(١) سورة النور الآية ٣٥.

(٢) سورة فصلت الآية ٥٣.

الأخرىٰ في مقابله لا شيء.

وقد أوضح سعدي (الشيرازي) في ديوانه «بوستان» هذا الأمر بصورة جيدة إلى حدٍّ ما، فهو يوضح التفاوت في رؤية الحكيم والعارف لله، حيث يقول:

«ليس طريق العقل سوى تعقيدٌ في تعقيد، وللعرف ليس هناك شيء سوىٰ الله». فإذا كان هو موجود فلا شيء سواه، ﴿ قل الله ثم ذرهم ﴾[1]. ومن المستحيل على من عرِف الله أن يميل إلى قطب آخر، إذا افترضنا أن هناك شيء يكون قطباً في مقابله.

ومن هنا فإن الإسلام ينظر إلى الله على أنه أعلى من حد التشبيه بالصانع، بل هو وجود وصانع، فإذا كان حقيقة، فلا يمكن أن تُعدّ الأشياء الأخرىٰ حقيقة في قباله.. فهو عظيم وكبير إلى هذهِ الدرجة.

وبناءً على هذا فإن الذي يقدمه الإسلام هو الإيمان بالحقيقة التي لا يمكن أن تُعدّ الأشياء الأخرىٰ حقيقة في قبالها.

نظرية الحكماء من خلال رؤية الإسلام

أما ما يقوله الحكماء، فهل الواقع أن الحكمة في الإسلام تعني إدراك حقائق الأشياء؟ وليس لدينا الآن نزاعاً صفروياً، في أننا هل نعتقد أن الحكمة هي بالمصداق الذي يراه الحكيم أم لا، بل الحديث في أصل الحكمة، أي إدراك الحقائق كما هي، وهذا مطروح في الإسلام. ومن أين نجد أفضل من هذا التعبير حيث يقول ﴿ **يُؤتِي الْحِكْمَةَ من يشَاءُ وَمَنْ يُؤتَ الحِكْمَةَ فقد أوتي خَيْراً كَثيراً** ﴾[2].

فقد اعتبر الحكمة خيراً للبشرية، وهو شيءٌ مساوٍ تقريباً للكمال، فهي

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩١.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٩.

ليست فقط نافعةٌ بل هي خيرٌ.

أي يجب أن يختارها هي بذاتها، لا أن يختارها على أنها شيءٌ مقدمةٌ لشيء آخر.

وكذلك العدالة الأخلاقية أيضاً. (طبعاً العدالة الاجتماعية ليست مرتبطة بكمال الفرد، بل بكمال المجتمع الإنساني، وحديثنا الآن عن كمال الفرد).

والإسلام له نظرية في مسألة العدالة الأخلاقية، ونظرية الإسلام في مسألة الغرائز والقوىٰ الموجودة لدى الإنسان تقوم على أساس الاعتدال، وهو يعتقد بضرورة إعطاء كل قوّة من القوىٰ نصيبها وحظها من دون إفراط أو تفريط. وهو لا يرىٰ كفاية الحُكم العقلي لوحده، والواقع يؤكد ذلك، حيث لا يستطيع العقل لوحده السيطرة على القوى والغرائز الإنسانية فلا بد من وجود الإيمان أيضاً.

وفي كل الأحوال فإن الإسلام مع العدالة الأخلاقية، ولكن مقولة أن يكون الحاكم على الإنسان قوّة الفيلسوف داخل الإنسان هي مقولة ضعيفة، أي ليست صحيحة، فالقوة العاقلة عند الإنسان إذا لم تكن مصحوبة بالإيمان والهدف فإنها غير قادرة على إجراء العدالة في البلاد «وجود الإنسان».

والخلاصة فإنه لا يمكن تحقيق الكثير من حاكمية الفيلسوف في وجود الإنسان، فالفيلسوف المؤمن هو الذي يجب أن يحكم.

المحبة في الإسلام

أما فيما يتعلق بالمحبة، فماذا نريد أكثر من هذا الذي هو موجود: «أَحْبِبْ لِغَيْرِكَ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ واكره لغيرك ما تكرهُ لنفسك»[1]، وكذلك ما ورد في باب التراحم والتعاطف، فنحن عندنا في الكافي[2] باب خاص تحت

---

(١) نهج البلاغة الرسالة ٣١.

(٢) الكافي كتاب فقهي يعتمد على أحاديث الرسول محمد (ص) وأئمة أهل البيت. وهو

عنوان «التراحم والتعاطف».

وفي الحديث المعروف أن رسول الله (ص) سأله أصحابُه: أي عُرىٰ الإيمان أوثق؟ فقال كل واحد من الصحابة شيئاً فأحدهم قال: الصلاة، وآخر: الصوم، وغيره قال: الحج، وآخر قال: الجهاد و.. الخ، فأجاب الرسول بأن كل ما قلتموه صحيح.. ولكنه ليس أوثق العرىٰ، فسأله أصحابه عن ذلك، فقال «حُبٌّ لله» أي محبة الآخرين من أجل الله «وبغض لله» أي بغض الآخرين من أجل الله أيضاً.

إذاً فكل ذلك موجود في الإسلام، ولكن يجب أن نكتشف أيها هو الأصل وأيها الفرع أم أنها كلها أصول أم لا؟.

مسألة العبادة

وفي الإسلام توجد مسألة أُخرىٰ أيضاً وهي مسألة العبادة لله، وقد جاء ذلك بشكل خاص في القرآن الكريم: ﴿ **وما خلقت الجنَّ والإنْسَ إلاّ ليعبدون** ﴾[1] وعلى سبيل الافتراض لم نجد مجموعة تقول بأن الإنسان خُلِق ليَعبُدْ، وأن هدف الإنسان وكماله في العبادة، ولكن على كل حال فإن هذا الأمر موجود في القرآن وقد لاحظناه.. إذاً فلا بد من التأمل في هذا الموضوع.

أقسام العبادة

العبادة من أجل أي شيء؟ هنا قضيتين؛ الأولى: عندما نعتقد بالعبادة كما يتصورها العوام، فعند ذلك عندما نجيب على سؤال لماذا يجب على

كتاب موسوعي ضخم وهو أحد الكتب الأربعة المعتمدة على الشيعة الاثنا عشرية (المترجم).

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦.

الإنسان أن يعبُد؟ نقول: لأن الله سبحانه وتعالىٰ سيثيبنا بالثواب الجزيل في الحياة الآخرة، وفي هذهِ الدنيا سنستفيد الاستفادة الكاملة.. وهذا سيقودنا إلى المنفعة غاية الأمر إنها في ذلك العالم وليس هذا العالم.. إنهما في نفس الحد والمرتبة غاية الأمر أن المنفعة في هذهِ الحياة محدودة، ونحن نعبد من أجل أن ننتفع في الحياة الآخرة، وقصدنا من التمتع والاستفادة هي نفس أنواع التمتع والاستفادة الموجودة في الدنيا غاية الأمر أنها أكثر وأكمل فهناك الحور والقصور والفاكهة...

إذا قلنا ذلك، فإننا في الواقع لم نقدِّم كمال الإنسان أكثر من حذه الحيواني، ونحن طبعاً نعتقد أن الإنسان قابل للبقاء والخلود في العالم الآخر، ولكن الحيوان الذي يستطيع الاستمرار بحياته الحيوانية، فلا يُعدّ ذلك كمالاً آخراً له.

وهذهِ العبادة كما يُعبّر عنها أمير المؤمنين (ع) هي عبادة الأُجراء أو عبادة العبيد ولكنها ليست عبادة الأحرار، كما أنها ليست وسيلة للتخلص من الآلام الجسدية والمادية.

يقول الإمام (ع) «**إن قوماً عَبَدوا الله طلباً للجنة فتلك عبادةُ الأجراءِ، وأن قوماً عبدوا الله خَوْفاً فتلك عبادة العبيد، وأنَّ قوماً عبدوا الله شكراً له فتلك عبادة الأحرار**»[1].

فإذا اعتقدنا بأن العبادة هي عبادة الأحرار، فإننا ارتفعنا بكمال الإنسان إلى حدّ أعلى من حد الرغبات الحيوانية، ولو كان الإنسان يحصل عليها في العالم الآخر. بل أن تكون العبادة عبادة «الشكر» و «الحب» و «العشق»، وعندها تجد العبادة مفهوماً مقابلاً ومساوياً لعشق الحقيقة، وأن الله ليس وسيلة لحياة الإنسان ولو في الآخرة، بل هو الحقيقة والمطلوب الحقيقي: «**يا ولي المؤمنين يا غاية آمال العارفين يا غياث المستغيثين يا حبيب قلوب**

---

(١) نهج البلاغة الحكمة ٢٢٩.

الصادقين ويا إله العالمين..»[1] .. إذاً فمسألة العبادة تعود تقريباً على مسألة الحقيقة، بل هي نفسها «عبادة الحق»، والعبادة بذاتها أمر موضوعي للإنسان.

«إلهي ما عبدتك خوْفاً من نارِك ولا طمعاً في جنتك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»[2] وهنا تأخذ العبادة أعظم صعودها وسموها، وبينها وبين تلك العبادة التي تجعل من الله والعبادة وسيلة لتحقيق الرغبات الحيوانية للإنسان في العالم الآخر، فرقُ ما بين السماء والأرض إذاً فنظرية العبادة تنتهي إلى القول بأن للعبادة درجات ومراتب، ومع هذا فإن العبادة من أجل الحصول على الرغبات الحيوانية الأخروية، نسبة إلى عدم العبادة والالتصاق بالماديات، تعتبرُ كمالاً، لأنها على الأقل جعلت من الله واسطة للحصول على أمر خالد باق، وهذا كمالٌ كبير بالنسبة إلى عبادة الهوى والنفس. ولكن التفاوت بين هذهِ العبادة وبين تلك العبادة السامية مثل الفرق بين الأرض والسماء.

إذاً عندما نقرأ ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾، وإذا قلنا من جهة ثانية أن للعبادة درجات. فإنه يكون واضحاً أن الهدف الأصلي ليس المرتبة الدنيا من العبادة بل هي المرتبة العُليا من العبدة. وكل من لم يصل إلى تلك المرتبة، فإن هذه المرتبة الأدنى أفضل بالنسبة له من لا شيء.

وقد جاء في تفسير ابن عباس: (ليعبدون؛ أي ليعرفون) وأن المعنى الذي أعطيناه للعبادة، يجعل من هذين المفهومين واحداً. لأن العرفان هنا هو المعرفة الكاملة وشهود (الحق) والعبادة في هذه المرحلة والسمو الذي ذكرناه لا يمكن أن يكون عملياً إذا لم يكن مصحوباً وتوأماً بمثل هذا العرفان.

إذاً فالعبادة ترجع إلى نظرية الإيمان والإيمان يرجع أيضاً إلى

---

(١) دعاء كميل.

(٢) نهج البلاغة.

لقد دعى الإسلام إلى الإيمان والعبادة، الإيمان الذي يرتبط بإدراك الحقيقة، والعبادة التي ترتبط عملياً بالحقيقة، ودعى إلى الحكمة والعدالة، ودعى إلى المحبة، وكذلك إلى الجمال: «**إن الله جميل يحب الجمال**».

لقد دعى الإسلام إلى كل ذلك، ولكن أيها هو الهدف الأصلي؟ هل هذه جميعها تشكل بدرجة واحدة هدفاً أصلياً؟ أم أن الهدف الأصلي شيئاً واحداً وما تبقىٰ إما أن يكون مقدمة للهدف أو من لوازمه.. مثل العبادة التي تكون مقدمة للوصول لذلك الهدف، أو المحبة و... التي تكون من لوازم الوصول إلى ذلك الهدف...

أي إذا وصل شخص إلى الحقيقة فإنه يُحب ويعشق كل ما هو من شأن تلك الحقيقة.

الهدف الأصلي في الإسلام

نحن نعتقد أن الهدف هو نفس «الحقيقة» أي ذات «الله». ففي المنطق الإسلامي هناك شيء واحد هو الهدف وذلك هو الله، لأن التوحيد في الإسلام لا يقتضي سوىٰ ذلك، وإذا ما قالوا بوجود أهداف أخرىٰ مثل الجنة، أو الفرار من الجحيم فإنها أهداف تأتي بالدرجة الثانية للناس الذين يجب أن يتنزّوا من تلك الأهداف الجهنمية المنحطة جداً، وإلا فإن الحكمة لهذا السبب كانت حكمة، بقطع النظر عن كونها توصل الإنسان إلى الله فهي ليست هدفاً، نعم إذا أوصلت الحكمةُ الإنسانَ إلى الحقيقة فهو أمرٌ جيدٌ، وحسنتها أنها أوصلت الإنسان إلى الحقيقة، وليس لكونها مطلوبةً بذاتها.

والعدالة الأخلاقية حسنة كذلك، بسبب كونها تقف ضد النفس الأمارة وتزيل هذا المانع عن طريق الوصول إلى الحقيقة، لأن وجود الإنسان ما لم يكن وجوداً متعادلاً فإن الإنسان لن يكون باستطاعته السير إلى الله.

والمحبة كذلك بآثارها وليس كونها مقدمة، أي أنها لازمة للوصول إلى

الحقيقة. وعلى كل حال فإن «الإيمان» في الإسلام من وجهة نظرنا «هدفٌ» وليس وسيلة، وهذا خلاصة القول.

وهنا قد يُطرح سؤال وهو: عندما نقرأ ﴿ يا أَيُّها الذينَ آمنُوا آمِنُوا ﴾[1]، فهل الإيمان هدفٌ أم وسيلة؟.

وبدون شك إن للإيمان آثار كثيرة، ولكن هل أرادوا الإيمان بسبب آثاره؟ وأن على الإنسان تحصيل الإيمان ليتخلص من الاضطراب والقلق، وأن يكون مؤمناً لكي لا يعتدي على الآخرين، وأن يكون مؤمناً لتكون بين الأفراد ثقة متبادلة و. . .؟ هل أن الإيمان مقدمة لكل ذلك، أم أن كل ذلك من آثار الإيمان، إن الإيمان بقطع النظر عن كل ذلك «هدفٌ» لأنه يمثل ارتباط الإنسان بالحق والحقيقة.

إذاً فإن الإيمان بالله من وجهة نظرنا «هدف»، وبعبارة أخرىٰ فإن «الله» هو الهدف، ولهذا السبب فإن الإيمان ومع كل تلك الآثار الكثيرة التي له لم يوجب الإسلام أن تكون له تلك الآثار. لأن تلك الآثار هي من فوائد الإيمان.

وأن الإيمان واجب لأنه نفسه يربط الإنسان بالحق، ونفس ارتباط الإنسان بالحق يعتبر كمالاً بحسب الرؤية الإسلامية.

فالعلم ليس هدفاً (العلم في أحد معانيه والحكمة، وهي العلم بحقائق الأشياء)، وليس الجمال هدفاً، وليست العدالة هدفاً، ولا المحبّة هدفاً. بل الهدف فقط هو الله والحقيقة، ولكن الحقيقة التي تكون مصحوبة مع تلك الأشياء الأخرىٰ، أما من باب المقدمة أو من باب النتيجة.

هذا هو بحثنا عن الهدف النهائي في الفكر الإسلامي. . وهو ليس سوى الله، ومن هنا فإن العبادة في أوجها وسيلة لربط الإنسان مع الله، وليس وسيلة للإنسان لتحقيق مطاليب أخرى.

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٦.

القسم الثاني

مفهوم التكامل

المحاضرة الأولى

مفهوم التكامل
والتكامل الاجتماعي للإنسان
في الماضي

موضوع بحثنا هنا هو مفهوم التكامل في التاريخ، وبتعبير آخر التكامل الاجتماعي والتقدّم الاجتماعي للإنسان.

فالعلماء يقولون بوجود نمطين من التكامل للإنسان.

الأول: التكامل الطبيعي الحياتي، وهو ما قرأتموه ولاحظتموه في علم الأحياء، وهو أن الإنسان أكثر الأحياء تكاملاً، وأنه آخر حلقة من حلقات التكامل الطبيعي للحيوانات.. ومعنىٰ التكامل الطبيعي واضح، أي أنه التكامل الحاصل من حركة الطبيعة بدون تدخّل من قبل الإنسان، ولهذا السبب فليس هناك تفاوت بين الإنسان والحيوان من هذه الجهة، وذلك لأن هذا الأمر تم وفق حركة طبيعية جبرية حيث أوصلت الحيوان إلى المرحلة التي هو عليها، وأوصلت الإنسان كذلك إلى المرحلة التي هو عليها بحيث أصبح نوعاً في مقابل سائر الأنواع.

ولكن التكامل التاريخي أو التكامل الاجتماعي، أي حركة جديدة من التكامل حيث ليس للطبيعة في هذهِ الحركة الجديدة تدخل بذلك الشكل.

وهذا التكامُل يُسمىٰ بـ «التكامل الاكتسابي»[1]، أي أنه التكامل الذي يكتسبه الإنسان بإرادته وبيديه، وقد انتقل إليه عبر الأجيال والتعلم والتعليم، وليس عن طريق الوراثة فالتكامل الطبيعي يحصل بدون اختيار الإنسان أو اكتسابه وهو ينتقل وفق مجموعة من القوانين الوراثية من جيل إلى آخر.

ولكن التكامل الاجتماعي أو التاريخي للإنسان ولأنه اكتسابيٌّ وأنه

---

(١) هذا التكامل من وجهة نظر الماركسية طبيعي وجبري على نحو ما.

حصل بإرادة الإنسان، فإن انتقاله من جيل إلى جيلٍ اخر ومن دورة إلى دورة وأحياناً من منطقة إلى أخرىٰ لم يكن عن طريق الوراثة وهو غير ممكن أن يتم عن ذلك الطريق، بل بواسطة التعليم والتعلّم، وبالدرجة الأولىٰ تم عن طريق فنّ الكتابة، ونحن نرىٰ أن القرآن الكريم أقسم بالقلم وأدوات الكتابة ﴿ **ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴾[1]، أو: ﴿ **اقرَأْ بِاسمِ ربك الذي خَلَقَ * خلق الإنسان من علَق * اقرأ وربُّكَ الأكرَمُ * الذي علم بالقَلم.** ﴾[2] وليس هناك بحثٌ في أن المجتمع البشري ومنذ بداية وجوده وشروعه ببناء التمدن كان يتحرك نحو التقدم والتكامل.

وإننا جميعاً نعلَم أن التكامل الاجتماعي قد حدث تدريجياً مثل التكامل الطبيعي، ولكن مع فارق واحد وهو تزايد سرعة هذا التكامل مع مرور الوقت، وبمصطلح علمي، إنه كان يتم بحركة متسارعة، أي حركة مع عدم سكون، وهي أيضاً لم تكن حركة متشابهة أو من نمط واحد (فالحركة النمطية مثل حركة السيارة التي تسير بسرعة ١٠٠ كيلومتر في الساعة، فهي تتحرك بنفس هذهِ السرعة في ساعة أو ساعتين أو ثلاثة.. أربعة.. خمسة..» بل هي حركة مصحوبة بتعجيل أي سرعة تزداد بالتدريج، فإذا تحركت مثلاً في الدقيقة الأولى مثلاً كيلومتراً واحداً فإنها في الدقيقة الثانية تتحرك بسرعة ٢ كيلومتر، وفي الدقيقة الثالثة ٤ كيلومتر بل نعلها أكثر، بحيث كلما تقدمت إلى الأمام فإنها تتحرك بزمان أقل مع سرعة أكثر وفي بعض الأحيان بسرعة خارقة للعادة تتقدم نحو الأمام.

ولكن ومع ما يبدو من أن التكامل والتقدم أمرٌ بديهي، فإنك تتعجب حتماً من وجود بعض المفكرين والأفراد يشككون في إمكانية تسمية ما يحدث باسم التقدم والتكامل، وهذا يدعو للتعجب من الوهلة الأولى إذ أين هو التشكيك؟.

---

(١) سورة القلم الآية ١.

(٢) سورة العلق الآيات (١ ـ ٤).

وسوف أتحدث عن السبب في تشكيكهم فيما بعد. . ولكن هنا أشير ولو بهذا المقدار وهو أننا وإن لم نرَ تشكيكهم صحيحاً، وأننا نعتقد أيضاً أن المجتمع البشري يسير نحو التكامل من جميع الجهات وأنه أصبح قريباً من مراحله النهائية، ولكن مع ذلك فإن شك هؤلاء وترددهم ليس بدون مبرر، فلذلك مبرر لا بد أن يتّضح لكي نستطيع نحن أن ندرك مفهوم التكامل.

ما هو التكامل؟

يجب أولاً أن نعرّف التكامل. فهناك الكثير من الأشياء التي تبدو للوهلة الأولى واضحة وبديهية ولا تحتاج إلى تعريف، ولكن عندما يريد الإنسان أن يضع لها تعريفاً يرىٰ كم هو صعب ذلك.

وأنا هنا لا أريد أن أذكر أو أستعرض كل التعريفات التي وضعها الفلاسفة للتكامل، ولكني هنا أريد أن أذكر بصورة عامة الفرق بين التكامل والتقدم، وكذلك الفرق بين الكمال والتمام.

في الفلسفة الإسلامية هناك بحث دقيق ومن حُسن الحظ أنه يمكن دراستهُ من خلال القرآن الكريم، وهو: بحث الفرق بين التمام والكمال، فنحن نستعمل التمام في مقابل النقص، وكذلك الكمال في مقابل النقص، فنقول: تامٌ وناقِصٌ، كامل وناقص.

فهل التامّ هو الكامل؟ كلا، ففي القرآن نزلت آية تتعلق بموضوع الإمامة والولاية حيث تقول: ﴿ **اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكُمْ نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً** ﴾[1]. فالقرآن إذاً يطرح مفهومين عن الكمال والتمام، فيقول أتممنا عليكم النعمة من النقص، وأكملنا عليكم الدين من النقص، وقبل أن نتعرض إلى الفرق بين هذين المفهومين يجب أن نبيّن الفرق بين التكامل والتطور.

---

(١) سورة المائدة الآية ٣.

فهل التطور أو التقدّم هو نفسه التكامل، وأن التكامل هو نفس التقدم؟.

واتفاقاً فإن هناك تفاوت بين هذين المفهومين، وعليكم بملاحظة موارد الاستعمال. فنحن نقول عن المرض مثلاً أنه يتطور ولكن لا نقول عنه أنه يتكامل، وإذا ما قاتل جيشٌ في أرضٍ واستطاع أن يحتلّ أرض العدو فإننا نقول إن الجيش الفلاني يتقدم ولا نقول عنه أنه يتكامل، لماذا؟ وذلك لأن مفهوم التكامل يكمن فيه العلو، أي أن التكامل حركة ولكنها حركة نحو الأعلى، فالتكامل حركة من سطح إلى سطح أعلى، ولكن التقدم يمكن أن يحدث في سطح أفقي واحد، فالجيش الذي يحتل الأرض ويضمها إلى سلطته نقول عنه أنه يتقدم أي أنه أضاف إلى حدوده وسلطته مقداراً آخراً من الأرض على نفس السطح، فلماذا لا نقول هنا تكامل؟ لأن في التكامل يكمن التعالي.

إذاً فعندما نقول التكامل الاجتماعي، فإن في ذلك مفهوم تعالي الإنسان من الناحية الاجتماعية وليس مجرد التقدم، فكم من الأشياء التي هي تعتبر تقدماً للإنسان والمجتمع الإنساني ولكنها لا تعتبر تكاملاً وتعالياً للمجتمع الإنساني.

ونحن إذ نقول ذلك فلكي يكون واضحاً؛ إن شك وتردد بعض العلماء في إطلاق كلمة التكامل على بعض المسائل لا يخلو من دقّة، مع أننا لا نتفق مع رأي هؤلاء ولكنهم توجهوا بنوع من الدقّة نحو الموضوع.

إذاً فالتكامل يتفاوت مع التقدم والتوسع «التقدم والتوسع يحملان نفس المفهوم تقريباً» ولكن فرق التكامل مع التمام هو: أن الشيء المتكون من مجموعة من الأجزاء مثل البناية أو السيارة، ما لم تنتصب فيه كل أجزاءه الضرورية، نقول عنه ناقص، وعندما يوضع عليه آخر جزء، مثلاً آخر طابوقة نقول: تمَّ. أي وصلت جميع الأجزاء إلى نهايتها. ولكن التكامل، على درجات ومراحل، فإذا وُلد طفلٌ ينقصهُ عضو من أعضاء، فإنه يكون قد ولد

غير تام، ولكن إذا جاء إلى الدنيا وهو تام من ناحية الأعضاء والأجهزة فإنه يكون ناقصاً أيضاً، ولا بد له من أن يطوي مراحل التكامل عبر التعليم والتربية، أي أن درجات التعليم والتربية هي بالنسبة لهذا الطفل تعالي، درجات الصعود نحو الأعلى.

وإلى هنا حيث بحثنا تعريف التكامل، والفرق بين التكامل الاجتماعي والتكامل الطبيعي، فلا بد إذاً من التعرض إلى مختلف المسائل التي تطرح حول هذا الموضوع، والتي يمكن طرحها بثلاثة أسئلة:

١ ـ هل حصّل البشر في حياته الاجتماعية في طول تاريخه على التكامل والتعالي أم لا؟.

٢ ـ هل المجتمع البشري متكاملٌ في المستقبل ويتحرك نحو التكامل؟.

٣ ـ وإذا كان يتحرك نحو التكامل، فهل ذلك المجتمع هو المجتمع النموذجي وبتعبير أفلاطون ما هي تلك المدينة الفاضلة للبشرية وما هي صفاتها؟.

نحن نستطيع أن نعرف التاريخ، ولكن كيف الحال مع المستقبل؟ وهل ـ فيما يتعلق بالمستقبل ـ يجب أن نغمض أعيننا ونقول إن التاريخ يتحرك جبراً نحو التكامل؟ وأن التكامل في طبيعة الزمان؟ وأن سفينة الزمان تتحرك نحو التكامل بالإجبار ومن دون أن يكون للإنسان أدنى تدخل أو دور، مثل التكامل الطبيعي الذي تحدثنا عنه سابقاً؟ وأن الناس السابقين في الماضي لم يكن لهم أي مسؤولية أو دور؟.

وأن دور الناس السابقين في الماضي كان إجبارياً وثانوياً؟ كلا، فليس الحال كذلك لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل، ومثل هذا الجبر لم يكن حاكماً على الماضي، فالناس بإرادتهم واختيارهم وتخطيطهم لمجتمعهم انتخبوا طريق التكامل ونقلوا المجتمع نحو الأمام.

أي يجب أن لا ننسى دور الحرية والاختيار والإرادة الإنسانية في

الماضي، ولهذا فإن عدداً من الناس الماضيين يستحقون التقديس والثناء والتعظيم وهؤلاء هم الذين كان بإمكانهم الوقوف أمام تكامل التاريخ، أو أن لا يساعدوا على تكامل التاريخ، وأن يختاروا لأنفسهم راحتهم الفردية ولكنهم لم يفعلوا ذلك، بل ضحوا من أجل تكامل التاريخ وهم بكامل حريتهم واختيارهم.

وهناك من الناس من يستحق اللوم واللعنة لأنهم عرقلوا الحركة.

وحتماً وإننا حينما نجهل مستقبلنا فهذا يعني أننا لا نملك تخطيطاً للمستقبل وإذا لم نأتفت أو نهتمّ بمسؤوليتنا في صنع التاريخ فسوف تلومنا الأجيال القادمة. فالتاريخ صنع الإنسان وليس الإنسان من صنع التاريخ، وإذا لم نخطط لمستقبل التاريخ ولم ندرك مسؤوليتنا في مستقبل التاريخ فإن أحداً لن يستطيع أن يقول لنا إن هذهِ السفينة تتحرك بنفسها نحو الهدف ومن ثم تصل إليه، فثمة احتمال على الأقل أن تتأخر أو تتقدم، أي أن المسير الاجباري الأعمى للحوادث لا يدفع نحو الأمام.

ففي الإسلام وخصوصاً في التشيع تبرز مُسألة مهمة لا بد أن يستوعبها الإنسان «وقد سجلتها في كتاب الإنسان والمصير» وهي من أرقىٰ المعارف الإسلامية.

مسألة باسم البداء

ففي الإسلام توجد مسألة باسم البداء، ويبدو أن البداء يحمل مفهوماً، قليل من الناس يستطيعون القبول به بأنه أمر صحيح، حتىٰ أن الكثير يعترضون على الشيعة بأنهم يؤمنون بالبداء.

ومعنىٰ البداء هو أن هناك تجديد نظر يقع في القضاء والقدر الإلهي، والمقصود هو أن الله سبحانه وتعالى لم يعيّن بصورة قطعية ونهائية الحركة التاريخية للبشر، أي: أيها الإنسان أنت الذي يُجري القضاء والقدر الإلهي، وأنت الذي تستطيع أن تتقدم بالتاريخ نحو الأمام، أو نحو الخلف، وتستطيع

إيقافه، فليس هناك أي جبر يحكم التاريخ سواء من الناحية الطبيعية أو من ناحية وسائل الحياة أو من ناحية المشيئة الإلهية، وهذا نوع من التفكير والرأي.

إذاً ما دُمنا لا نعرف التكامل واتجاه الإنسانية في حركتها فإننا لن نستطيع الحديث عن التكامل ونقول إن البشر يتقدم، خصوصاً وأن هذه الأسئلة تُطرح مباشرة: إلى أين؟ وبأي اتجاه؟ هل إلى اتجاه لا أعلم؟ وإذا كان باتجاه لا أعلم فماذا نقول نحن؟ وأي طريق هو طريق الوصول؟ فنحن نقرأ التاريخ من أجل أن نفتح الطريق للمستقبل وإذا كان التاريخ قادراً فقط تعريف نفسه للحاضر ولا يستطيع أن يفتح الطريق للمستقبل فما هي فائدته؟.

ولكننا نرىٰ أن القرآن يقدّم لنا التاريخ على أنه يفتح لنا طريق المستقبل ويجب أن يكون كذلك. وبناء على هذا فإننا نملك بحثاً حول الماضي حتىٰ الحاضر وبحثاً للمستقبل.

إن مسألة «التكليف، والوظيفة والمسؤولية» تتوضح لنا عندما نعرف الماضي.. وبعد أن تكون لدينا نوعاً من المعرفة عن المستقبل.

التكامل الاجتماعي في الماضي

وبدون شك فإننا حينما ننظر إلى التاريخ الماضي من زاويتين، فإننا نرىٰ حصول التقدم بالنسبة للبشرية، الأولى من جهة صناعة الآلة، حيث ليس هناك شك أن البشر قد حقق تقدماً بصنع الآلة، وهو تقدم يدعو إلى التعجّب، فهذا البشر الذي كانت آلته عبارة عن حجر وهو حجر غير منظم أو مصقول تم انتقل فيما بعد إلى مرحلة صقل الحجارة، واليوم وصل إلى مرحلة التكنولوجيا، فالبشر إذاً من ناحية الإبداع الفني واختراع الآلات ليس فقط تقدم بشكل محسوس، بل إنه تقدّم بصورة تدعو للحيرة، فقد حقق تقدماً بحيث لو قالوا قبل مائة عام لكل البشر والفلاسفة أن البشر بعد مئة عام سيتقدمون بهذه الصورة التي هم عليها اليوم من ناحية التكنولوجيا لما كان

بإمكانهم تصديق ذلك، فإذا شئتم ضعوا لهذا اسم التقدم أو اسم التكامل، فالذي لا شك فيه أن البشر وصلوا من ناحية وسائل الحياة إلى أعلى مراحل التقدم، ويُتوقع أن يستمر الأمر كذلك في المستقبل، إذا لم يتوقف ذلك، أي لم تحصل للبشر والتاريخ فاجعة، فاجعة يتوقعها عددٌ من العلماء والمفكرين ويحتملونها حيث يقولون إن التقدم الفني والصناعي وصل إلى درجة بحيث يُمكن أن يفنىٰ البشر بيد البشر أنفسهم مع كل ما حصلوا عليه في ماضيهم من العلم والفن والصناعة والكتاب والتمدن وآثاره، ولعل من الممكن أن يوجد من جديد بشرٌ يشرعون بالحياة كما بدأت في يومها الأول.

فإذا لم تقع مثل هذهِ الفاجعة أو الكارثة فليس من شك أن البشر سيتقدمون على صعيد أدوات العمل، ولعلهم يصلون إلى مراحل لا يستطيع أن يتصورها أبناء البشر اليوم.

هذا التكامل معلول لتكامل تجارب البشر وتكامل علم البشر (العلوم التجريبية) لأن البشر من ناحية المعلومات التجريبية ومعرفة الطبيعة قد حققوا تقدّماً واستطاعوا وضع الطبيعة في خدمتهم.

وبعبارة أخرىٰ فإن البشر حققوا تقدما في علاقتهم مع الطبيعة، وكلما تقدموا نحو الأمام كلما كانت الطبيعة تحت تصرفهم أكثر.

والجهة الأخرىٰ للتكامل «إذا كان ممكناً تسمية ذلك بالتكامل وهو مشكل» هي أن بناء المجتمع البشري انتقل من حالته البسيطة تدريجياً نحو التعقيد والتعقيد أكثر، أي مثلما كانت أول طائرة صنعها البشر بسيطة ثم صنعوا الآن سفن الفضاء المعقّدة المليئة بالأجهزة المعقدة والدقيقة، وكذلك مثل التكامل الطبيعي، فإن بناء وتكوين بدن حيوان ذو خلية واحدة أبسط كثيراً من بناء جسد الإنسان حيث هو معقد جدا، ففي المجتمع البشري الأمر كذلك.

ويعرف البعض التكامل بالصورة التالية: التكامل عبارة عن التراكم، أي تجمع عدّة أجزاء في البداية، ثم تقسيمها، ثم الخروج من التجانس والانتقال

نحو عدم التجانس، تحولها نحو التنظيم والجسد الواحد. العضو، صيرورته عضواً، الجزء ـ صيرورته جزءاً ـ، ثم نمو الرابطة الواحدة بين الأعضاء، وهي مثلما تعلمون في النطفة، فتلك الخلية التي تتركب من خليتين واحدة ذكرية والأخرى أنثوية، تكون في البداية في حالة بسيطة ثم تأخذ بالتجمع والتراكم أي الواحد يصير اثنان، ثم أربعة، والأربعة تصير ثمانية وهذه تصير ستة عشر، ثم تنقسم باستمرار ولكنها مجرد زيادة كميّة، وحتىٰ تصل إلى مرحلة ظهور صورة التقسيم ثم تتغير الماهية، فمجموعة تشكل مجموعة الأعصاب، ومجموعة تشكل القلب، والأخرىٰ تشكل الكبد و. . .

وكل المجموعات طبعاً ترتبط مع بعضها بنوع من الوحدة. . ومن كل هذهِ المجاميع يتشكّل الإنسان.

ومن هنا فإن المجتمع الإنساني الذي تقدم بدون شك، إذا شئت ضع له اسم التكامل أو لا تضع، أي أن بناء المجتمع تحوّل من ذلك النوع البسيط إلى هذا النوع من التعقيد، إن تركيب وبناء المجتمعات البدوية والقبلية بسيط جداً، فهناك شخص واحد يحتلّ موقع رئيس القبيلة ومعه مجموعة من الأفراد، حيث يقوم رئيس القبيلة أحياناً بتقسيمهم على عددٍ من الأعمال حيث لا يوجد أكثر منها، ولكنكم تلاحظون أن العلم والفن كلما تقدّم فإن التقسيمات في المجتمع تزداد، ويصبح العمل أكثر، وتقسيم العمل يزداد، وتزداد الأعضاء للمجتمع، قارنوا أنتم الأعمال وأنواعها للمجتمعات قبل مئة عام مع المجتمعات اليوم، أو خذوا التقسيمات الإدارية والعلمية، ففي القديم كان بإمكان الشخص أن يكون معلّماً في كل علوم زمانه، يكون أرسطو معلماً لكل العلوم، أو يكون مثل ابن سينا معلّماً لكل العلوم في زمانه، ولكن الآن فإن جهاز التربية والتعليم أصبح مقسماً إلى درجة كبيرة بحيث يعمل مئة شخص مثل ابن سينا في قسم واحد متخصص حتىٰ أنهم أحياناً يجهلون وجود أقسام أخرىٰ في هذهِ الدنيا.

وهذا الأمر له مزيّته «وأنا أتحدث بشكل خاص بسبب هذه المزيّة» وهي أن هذا النوع من التكامل والتقدم يخرج أفراد الإنسان من حالة التشابه ويضع

بينهم تمايزات واختلافات، لأن الإنسان كما يصنع العمل، فإن العمل يصنع الإنسان أيضاً.

ثم إننا نرىٰ أن الناس في المجتمع ومع كونهم جميعاً يطلق عليهم كلمة الإنسان، ولكن كأنهم يختلفون في الماهية، لأن هذا الإنسان مشغول بعملٍ والآخر لا يعلم عن هذا العمل أي شيء، وهذا له شغل بالدنيا، والآخر يبدو وكأنه لا يعرف هذه الدنيا إطلاقاً، وبالنتيجة، فإن الإنسان عندما يظهر خارجاً فإننا نجد اختلافاً كثيراً بين الناس، وإذا أردنا نحن أن نستخدم التكامل أو التطور في بناء وتنظيم المجتمعات، فإن مما لا شك فيه هو أن بناء المجتمعات تقدمت من البساطة نحو التعقيد، ولعل هذا ما يدعو بعضكم للإحساس بالخطر، لأن الأمور إذا سارت على هذا المنوال، فإن الناس سيختلفون مع بعضهم إلى درجة تهديد الوحدة النوعية للبشر بالخطر، أي أن يكون الإنسان، إنساناً بالشكل، ولكن بناءهم الفكري والروحي والتربوي يتفاوت بينهم تماماً، وهذا خطر كبير على المجتمعات البشرية.

وهذا هو مصداق ما يقولونه من أن التقدم الصناعي جعل الإنسان غريباً عن نفسه، وبتعبير أفضل غريباً مع نفسه، وأنه صنع الإنسان على صورة تهدد وحدة الإنسانية، وهذا بحد ذاته أمرٌ خطير.

وعلى كل حال يجب القول فيما يتعلق ببناء وتشكيلات المجتمع، إن المجتمعات قد حققت تقدماً في الماضي. ولكن الأمر هنا يتعدىٰ مسألة القدرة والسيطرة على الطبيعة وكذلك بناء المجتمع الإنساني، وبعبارة أخرىٰ، فإن هناك سلسلة من المسائل في المجتمعات الإنسانية ترتبط بماهية الإنسان والعلاقات بين البشر.

علاقات الناس مع بعضهم

هل أن البشرية تقدمت وتطورت في علاقاتها وروابطها مع بعضها مثل تطورها الكبير في مجال صنع الآلة وفي بناء المؤسسات الاجتماعية؟ فإذا

كانت قد حققت هذا التطور واقعاً فإن ذلك هو التكامل واقعاً، وذلك هو التعالي، وعلى سبيل المثال هل تطور الحِس بالتعاون والتعاضد بين البشر؟ وهل أن إنسان اليوم يشعر بالآخرين أكثر مما كان يشعر به الإنسان القديم؟ وهل تطوّر إحساسه بالمسؤولية تجاه الآخرين بنفس النسبة؟ وعواطف الناس تجاه بعضهم هل تطورت بنفس النسبة؟ وهل زالت واقعاً روحية استغلال الإنسان للإنسان؟ وهل قلّت نسبة اعتداء الإنسان على الإنسان؟ وهل تطورت هذه المسائل وتقدمت بنفس النسبة التي حققت بها مسائل البناء والتركيب الاجتماعي وأجهزته تقدماً؟ أم لا، وأن هذهِ المسائل قد بقيت على حالها الأول؟ أو أن من الممكن أن يدّعي إنسانٌ أن هذه المسائل ليس فقط لم تحقق تقدماً بل أنها رجعت إلى الوراء، وبعبارة أخرىٰ، هل أن القيم الإنسانية وما هو معيار ومقياس لإنسانية الإنسان قد حققت تقدماً نحو الأمام بنفس النسبة؟.

وحول هذا الموضوع هناك مجموعة من النظريات المختلفة، فالبعض ينكر حصول هذا التقدم وينظرون للأمور نظرة متشائمة من حصول التقدم في هذا المجال لأنهم يقولون: إذا كان مقياس التقدم هو السعادة وهدوء البال، فإن من الصعب أن نعتبر تلك الأمور تقدّماً، وحتىٰ أنهم يعممون هذا القول على وسائل الإنتاج.

وحول السبب الذي جعل من التقدم الصناعي مورداً في الشك في قدرته على تحقيق راحة الإنسان، وهل هو دليلاً على التقدم أم لا، أضرب لكم مثالين:

المثال الأول: السرعة

إن واحدة من المسائل التي تطورت كثيراً والتي لها علاقة برابطة الإنسان بالطبيعة، ولها علاقة بالأدوات الصناعية، هي مسألة السرعة. فالإنسان طور السرعة إلى حد كبير في الآلة.

هل كان من الممكن قبل مائة عام أن يتصل بي مجموعة من طلبة

الجامعة خلال دقيقة واحدة وأنا في طهران وهل كان من الممكن أن أصل إليهم خلال ساعة واحدة بالطائرة؟ كلا.

فقد ازدادت السرعة بشكل كبير، ولكن هذه السرعة هل يمكن اعتبارها تقدماً بالمقايسة مع راحة الإنسان واطمئنانه؟ أم أن السرعة ولسبب كونها إحدى الوسائل، قد خلقت عند الإنسان راحة في إحدى الجوانب، وسلبت هذه الراحة من أجزاء أخرىٰ، خصوصاً وأن هذه السرعة بإمكانها إيصال الإنسان الذي يملك نوايا حسنة إلى مقصده بسرعة، كما أنها في الوقت نفسه تقوم بإيصال أصحاب النوايا الخبيثة إلى مقصدهم بصورة أسرع، أي بالضبط أنها جعلت من الإنسان الصحيح وذو النوايا السليمة قوي الأرجل واليدين، ولكن الإنسان الخبيث أصبح كذلك أيضاً. فزيادة السرعة مثلاً جعلت بإمكان القاتل أن ينتقل خلال ساعات من هذا الطرف من العالم إلى الطرف الآخر، وقتل الآلاف بل الملايين في مكان واحد. فما هي النتيجة النهائية؟ أنني سأعرض لكم الآن موضوعاً لا أراه صحيحاً، ولكن أريد أن أقول وأوضح السبب الذي دعىٰ البعض للاعتراض والشك؟.

مثلاً: هل أن تقدم الطب هو تقدم للإنسان؟ والجواب حسب الظاهر: نعم، سيّما وأنني أرى نفسي وطفلي، فإذا ما أصيب طفلي بمرض الديفتري فإنني أحدّد الدواء فوراً وأعالجه، فلا يبقىٰ عندي شك أن هذا تقدّماً، ولكن البعض مثل الكسيس كارليل، الذي يقيس التقدم بمقياس الإنسانية، يرىٰ أن تقدم الطب في الوقت الحاضر سيكون سبباً في إضعاف الأجيال البشرية بالتدريج، فهو يقول: في الماضي كان الناس يقاومون الأمراض، والناس الضعفاء كانوا يموتون والذين يبقون هم الأقوياء، وبالتدريج أصبح نسل الإنسان، قوياً، وكذلك لم يتعرض الناس لموضوع الكثافة السكانية العالية، ولكن ما يحصل الآن؛ هو أن الطب أصبح سبباً في الإبقاء وبصورة صناعية على الناس الضعفاء الذين هم بحكم الموتىٰ من الناحية الطبيعية، وبعد ذلك، فإن الجيل الناتج من هؤلاء ليس من الأصلح، والنتيجة هي أن أجيال البشرية تسير نحو الضعف، فمثلاً الطفل الذي يولد لسبعة أشهر من عمره يكون

محكوماً بالموت طبيعياً، ولكن الطب الذي تطوّر يستطيع الإبقاء عليه بوسائله الخاصة، صحيح أنه يبقىٰ ولكن كيف سيكون حال الجيل الذي ينتجه في المستقبل؟.

وكذلك مسألة الكثافة العالية والتراكم العددي للسكان والتي هي سبب للقضاء على فرص زيادة عدد الناس الأصلح لإنتاج الأجيال القادمة، وسيبقىٰ الناس الذين لا يملكون الصلاحية لإنتاج الأجيال الأصلح والقوية بهذه الوسيلة.

المثال الثاني: وسائل الارتباط العامة

وحول وسائل إيصال الخبر، أو حسب الاصطلاح وسائل الارتباط الجماعي، يتصور الإنسان أن ليس هناك ما هو أفضل من أن يجلس المرء في مكان ويستمع إلى الخبر الذي هو محل اهتمامهِ في موعده المحدد، ولكن هناك من يقولوا: إن ذلك يسبب إيجاد الكثير من القلق والاضطراب في قلوب الناس! فهناك أشياء كثيرة من مصلحة البشر أن لا يعرفونها.

وعلى سبيل المثال، فإن الناس في شيراز[1] في قديم الأيام لم يكونوا ليعلموا بوقوع السيل في قوجان[2] وأنه قتل الآلاف من الناس أو سبب لهم كارثة، ولكنهم الآن يعرفون ذلك بسرعة فيسبب ذلك لهم التألم وعدم الراحة. وهناك آلاف الحوادث التي تقع يومياً في هذا العالم وهي أحداث مزعجة ومؤلمة.

وهذا ما يدعو إلى الشك في كون هذهِ الأمور دليلاً على التقدم وذلك عند من يعيش التقدم على أساس الراحة والهدوء.

والآن لندع أقوال هؤلاء، لأننا نعتقد في نهاية الأمر أن التكامل مع بقية

---

(١) مدينة إيرانية تقع في الجنوب (المترجم).
(٢) مدينة إيرانية تقع في الشمال (المترجم).

التكامل الإنساني بإمكانه أن يسيطر على هذا الأمر، حيث سنتكلم عن هذا الموضوع لاحقاً.

إذاً ففي مسألة علاقة الإنسان بالإنسان، أما أن لا نستطيع أن نقول بحصول التقدم والتكامل، أو إذا حصل، فإنه بدون شك لم يحصل في جانب علاقة الإنسان بالإنسان بنفس النسبة التي تحققت في صناعة الآلة وبناء الأجهزة البشرية.

علاقة الإنسان بنفسه

والمسألة الأخرىٰ هي علاقة الإنسان بنفسه مع نفسه واسم ذلك الأخلاق.

إذاً لم نقل بأن منتهىٰ سعادة الإنسان في إقامة علاقات حسنة بين الإنسان مع نفسه، ونحن طبعاً لا نقول كذلك لأن ذلك إغراق وتطرّف، ولكننا إذا ما أردنا أن نقارن ونقيّم موجبات السعادة البشرية مع بعضها واستخراج النسبة المئوية، فإن من المُسلّم به أن النسبة المئوية الأعلى ستكون لعلاقة الإنسان مع نفسه، في علاقة إنسانية الإنسان بحيوانية الإنسان.

لأن الإنسان في نفس الوقت الذي هو فيه إنسانٌ يحمل مجموعة من القيم الإنسانية، فإنه أيضاً حيوان، أي أنه حيوان صار إنساناً.

وهنا يُطرح هذا السؤال وهو: هل أن إنسانية الإنسان تغطّيها حيوانيته، أم أن حيوانيته تحت سلطة إنسانيته؟ والقرآن يقول: ﴿ **قد أَفْلَح من زَكاها وقد خابَ من دَساها** ﴾[1] والحديث هنا عن ضرورة أن لا يكون الإنسان أسيرا لصفاته الحيوانية المتدنية، فالإنسان ما لم يتكامل أخلاقيا، أي إذا لم يتحرر من داخله من حيوانيته فليست هناك إمكانية لإقامة علاقة طيبة وحسنة مع الآخرين، أي أن يتخلص من أسر الإنسان الآخر أو أن يكون الإنسان الآخر

---

(١) سورة الشمس الآيتان ٩ و ١٠.

أسيراً له، إذاً فنحن في الواقع بحثنا في أربعة أمور:

١ ـ علاقة الإنسان بالطبيعة، وهي علاقة متقدمة بالمعنىٰ الذي قلناه.

٢ ـ علاقات البناء والتركيب الاجتماعي؛ حيث حصل تقدم بشري في هذا المجال.

٣ ـ حُسن العلاقات بين الإنسان والإنسان الآخر، حيث إن معنىٰ ذلك ارتباط معنوية الإنسان وحقيقته بذلك، وفي هذا شك؛ هو هل حصل فعلاً تقدّم أم لا؟ ولكن لا شك في كونه لم يحقق تقدّماً بنفس النسبة التي تحققت في (١ و٢)، غير أن السؤال الأصلي هو هل حقق التقدم أصلاً أم لم يحقق أي تقدم.

٤ ـ علاقة الإنسان بنفسه، وهذا اسمه الأخلاق.

دور الأنبياء والدين في تكامل التاريخ

هل أن إنسان اليوم ابتعد أكثر عن حيوانيته وتحققت فيه القيم والمعايير الإنسانية، أم الإنسان القديم؟ وبعبارة أخرىٰ؛ كيف يكون تكامل الإنسان بماهيته الإنسانية؟.

إن دور الأنبياء في تكامل التاريخ يوضح هذا النوع من التساؤل..

ما هو الدور الذي لعبه الأنبياء في تكامل التاريخ، وما هو الدور الذي سيلعبونه في المستقبل؟.

ما هو الدور الذي قدّمه الدين في الماضي، وما هو دوره في المستقبل؟.

وهنا نستطيع أن نتبيّن الدور الذي لعبه الدين في الماضي، ونكتشف دوره أيضاً في المستقبل، وأن نحدس من خلال القرائن العلمية والاجتماعية هل أن البشر في مستقبلهم ومن أجل تكاملهم يحتاجون الدين أم لا؟.

لأن بقاء كل شيء وعدم بقائه تابع للحاجة، وقد أخبرنا القرآن بذلك والعلم أيضاً يؤيّد ذلك، فالقرآن يقول: ﴿ فأما الزَّبَدُ فيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فيمكثُ في الأرض ﴾[1].

وهناك مثل معروف يوضح ذلك، وقد ذكرته في محاضرات كثيرة، وهو مثل الرغوة التي تصاحب السيل والتي تطفو على سطح الماء سرعان ما تزول أما الماء فيبقىٰ، ثم يقول إن هذا مثل الحق والباطل، وهو يعرّف الحق والباطل هكذا: الذي ينفع ويفيد يبقىٰ، والذي لا فائدة منهُ يزول.

إن مسألة مستقبل الدين، وهل سيبقىٰ أم لا، يرتبط بالدور الذي يحمله الدين في تكامل ماهية الإنسان، في تكامل معنوياته وإنسانيته، أي الدور الذي يلعبه في إقامة علاقات حسنة بين الإنسان ونفسه والآخرين، حيث لا يستطيع أيّ شيء أن يأخذ محلّه أو يحتلّ دوره.

إذاً فالمسألة ستكون في المستقبل على الشكل التالي وهي إما أن تنقرض البشرية، وأن البشر سيفني نفسه بنفسه بانتحار جماعي حيث تزول البشرية من على وجه الأرض، أو أن تصل البشرية إلى مصيرها الواقعي وهو التكامل في كل جانب، التكامل في علاقتها مع الطبيعة، والتكامل في المعرفة، التكامل في القدرة، التكامل في الحرية، التكامل في العواطف، والتكامل في الإحساس بحب الإنسان و.. وفي كل أنواع هذا التكامل سيجد الإنسان الحقيقة، وهذهِ هي عقيدتنا، وقد استلهمنا ذلك بالدرجة الأولى في تعليماتنا الدينية.

لقد تحدثنا عن هذا الموضوع في نفس هذهِ الجامعة في محاضرة تحت عنوان الامدادات الغيبية في حياة البشر وقلت إن هذا التفاؤل في رؤية مستقبل البشرية وتكاملها وعدم وصولها إلى الطريق المسدود، فقط نحن الذي نملكه، وأوضحت كيف أن العقائد والمدارس الأخرىٰ وصلت إلى طريق

---

(١) سورة الرعد الآية ١٧

[illegible] في تفسير التفكير البشرية في مستقبل [illegible]
الذي هو التفكير البشرية أي التفكير في ماهية الإنسانية

[illegible]

من هذا نتبين في حديثك أن معرفة ماهية الإنسان [illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible] معرفة ماهية الإنسان [illegible]

[illegible]
[illegible] ماهية الإنسان [illegible]

[illegible]

[illegible] في حديث [illegible] عن ماهية الإنسان

وقد جاء البعض فقدّموا تفكيراً سطحياً، وقالوا: إن الشيء الأساسي الذي جعل من الإنسان يختار أهدافاً ضد الإنسانية وأن يستفيد من الصناعة ضد الإنسان هو شيء واحد وذلك هو التركيب الطبقي للمجتمع، اقضوا على التناقض الطبقي، فسوف تزول كل هذهِ المساوىء.

وهذا الموضوع سوف أتناوله وأضعه بخدمتكم في محاضرة قادمة وهو أن القضاء على التناقض الطبقي يعتبر أحد شروط اللازمة لتحقيق سعادة وتكامل الإنسان، ولكن على خلاف الفرضية التي كتبتها هنا فإن هذا الشرط لا يكفي.

ولذلك فنحن إذا أردنا أن نعرف وجهة نظر الإسلام في المجتمع النموذجي من زاوية الرؤية التي تقول أن في دولة المهدي (ع) سيحدث كذا وكذا، حيث نفهم أن رؤية الإسلام حول تكامل الإنسان لا تعني أن نصبر حتىٰ يحدث التكامل. وقد ذكرت هذا الموضوع بشكل خاص في كتاب «ثورة المهدي (ع)» بل كان هذا الموضوع هو روح الكتاب وهو أن التكامل يحدث تدريجياً ويجب الوصول إليه.

إن مسألة استغلال الإنسان للإنسان من الناحية الاقتصادية وضرورة القضاء على هذا الاستغلال، هي واحدة من الشروط، وهي أحدى الدرجات في أركان التكامل ولكنها لا تكفي وحدها لتحقيق التكامل. ودليل ذلك هو عدم وصول الإنسان إلى ماهيته الإنسانية حتىٰ في المجتمعات التي تم القضاء فيها على التناقض الطبقي. ثم، ألا تُعدّ هذهِ المذابح الجماعية التي تقع في المجتمعات غير الطبقية، دليلاً على هذا الواقع الذي نقوله؟ فلماذا يحدث كل ذلك.. حيث لا وجود للطبقية؟.

لقد ادعى سولجينستين، في كتابه المعروف بـ ـ جزر الكولاك ـ. أن ١٠٠ مليون إنسان قد قتل بعد ثورة أكتوبر على أثر التصفيات الجسدية.

وبناء على هذا فهل أن المعاناة الوحيدة للإنسان هي وجود الطبقية أو تسلط الإنسان على الإنسان الآخر؟ وهذه الدكتاتورية التي تمارسها البروليتاريا التي يعتقد بها هؤلاء هي أسوأ أنواع اعتداء الإنسان على الإنسان، إذاً، فالقضاء على التناقضات الطبقية هي إحدىٰ الشروط اللازمة، ولكنها ليست كافية.

س: إذا كانت العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في حالة تكامل أفلا يجب أن يتكامل الدين في هذا الطريق؟ وبعبارة أخرىٰ إذا كان كل شيء متكامل فالواجب إذاً أن يكون الدين متكاملاً.

ج: جواب هذا السؤال واضح، فنحن ما الذي فهمناه عن الدين؟.

فإذا كنا نفهم الدين على أنه ظاهرة ترتبط بالزمان جاءت عبر سلسلة من الظروف الخاصة الزمانية والمكانية، أي أنه ظاهرة ترتبط بالزمان والمكان، فالجواب على ذلك، أولاً: أن هذا ليس ديناً، وثانياً: إذا كان ديناً فهو متغير، ولكن إذا كنا نعتقد بالدين على أنه بيان لقوانين التكامل الاجتماعي، أي مثلاً مثل العلم حيث اكتشف قوانين التكامل الطبيعي، فالدين وضح وبيّن قوانين التكامل الاجتماعي الذي هو تكامل اكتسابي، ففي هذهِ الصورة يكون قانون التكامل غير متكامل.

فمثلاً في التكامل الطبيعي إذا قلتم، إن النباتات تكاملت وفق هذه القوانين، فهل أن قوانين التكامل، تكاملت مثلما تكاملت النباتات؟ كلا، فالقانون ليس ظاهرة، وظواهر العالم هي التي تتكامل، فالنبي نفسه ظاهرة، ولهذا فهو يولد، وينمو ويُعمّر، ثم يموت ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾، ولكن القرآن «وليس المقصود منه الورق» يشكل سلسلة من الحقائق والمعارف والقوانين التي أرسلها الله للبشر، لذلك فهو يبقىٰ.

يا أيها النبي، إنك ميّتٌ، ولكن القرآن يبقىٰ، أنت ظاهرة، والقرآن قانون، الظاهرة تموت، والقانون يبقىٰ.

س: ما الذي يجب عمله للوصول إلى التكامل المعنوي والأخلاقي في المجتمعات التي تنتشر فيها أمواج الفساد والرذيلة؟.

ج: لحسن الحظ فإن المجتمعات التي يكثر فيها الفساد أو التي ينتشر فيها الفساد، تكون الأرضية مناسبة أكثر للتكامل الروحي والأخلاقي للإنسان، فلا تقعوا في خطأ التصوّر، لأن التكامل الروحي والأخلاقي والمعنوي للإنسان إنما يكون نتيجة للمقاومة في مقابل الحركة المضادّة.

ولعلكم جربتم ذلك بأنفسكم، ولي تجربة في ذلك: ففي إحدىٰ القرىٰ وفي ناحية منها يوجد عدد من الناس المتساوون في المستوى الثقافي، فإذا كان بينهم شخص واحد فاسداً فإن فساده في حدود قوله الكذب، فإن مثل هذا الشخص لا يمكنه الاستمرار كثيراً. وكذلك فإنه في مثل هذا الجو لا يترعرع أشخاص ذوو مستوىٰ عالٍ ولكن في الأجواء التي تكثر فيها الحركات المضادة فإنه وإن كانت ضحاياه كثيرون، لكن الأشخاص الكاملون نجدهم يترعرعون في مثل هذا الجو أيضاً.

وأنا في حدود تجربتي الشخصية، حيث عايشت المحيط القروي، وكذلك محيط وأجواء المدن، وكنت في طهران أيضاً، ففي طهران التي هي أكثر أجواء إيران فساداً من الناحية الأخلاقية[1]، فإنني التقيت بأطهر وأكمل الناس في عمري في نفس طهران الملوثة بالفساد.

فإذا كان المطلوب هو أن تكون حركة المجتمع نحو الصلاح دائماً فإنه يكون مثل النهر الذي يجري بسرعة ثم يأتي إنسان فيلقي نفسه في الماء ويطفو فوقه كالميت حيث يتحرك به التيار، فليس ذلك فنّاً، الفن والإبداع هو أن يسبح الإنسان عكس التيّار، حيث يتجلىٰ في ذلك الوقت كماله.

* * *

(١) لا بد من التنبيه إلى أن المحاضرة ألقيت في زمان الشاه المقبور.

المحاضرة الثانية

مستقبل البشرية من خلال نظريات مختلفة

كان بحثنا حول مفهوم التكامل التاريخي أو التكامل الاجتماعي للإنسان فيما يتعلق بماضي الإنسان، وهو هل أن الذي مرّ على الإنسان والمجتمع يُمثّل تكاملا، أو على الأقل تطوراً وتقدما أم لا؟. أم أن هناك شيء ثالث وذلك هو أن الإنسان حقق تقدما كبيراً جديراً بالاهتمام في قسم من شؤون حياته الاجتماعية، ولكنه في أقسام أخرى وأبعاد أخرى من حياة الإنسان إما أن نقول إنه لم يحقق تكاملاً أو تقدماً، أو يجب على الأقل أن نقول، إذا كان قد حقق تقدما ما، فهو بوتائر بطيئة جدا بحيث لا تتناسب مع وتائر التقدم المتحققة في الأبعاد الفنية وفي البناء الاجتماعي للبشرية.

تلك الأبعاد التي لم يستطع البشر أن يتقدموا فيها، هي الأبعاد الإنسانية في الحياة الاجتماعية، وإذا ما مثّلنا الحياة الاجتماعية للبشر بالجسم، فإن الأبعاد الفنية والتشكيلية للحياة التي تحقق فيها تقدماً ملحوظاً تمثل جسم المجتمع، والأبعاد الإنسانية للحياة الاجتماعية بمنزلة الروح الإنسانية، وعند ذلك نحصل على النتيجة التالية وهي أن الإنسانية قد حققت تطوراً ملحوظ وكبيرا على مستوى البدن، ولكنها على مستوى القضايا الروحية والمعنوية لم تحقق تقدما.

ومن هنا كان الاختلاف في وجهات النظر حول مستقبل الإنسان.

التشاؤم واليأس من طبيعة البشر ومستقبل البشرية

ينظر البعض إلى مستقبل البشرية بتردد حيث يبرز التساؤل التالي وهو: هل أن للبشرية مستقبل أم لا؟ أي أنهم مترددون في قبول فكرة إيجابية عن هذا المستقبل مع وجود التصور بأن البشر أنفسهم هم الذين يهددون

مستقبلهم بالفناء والعدم.

ويبرز مثل هذا التشاؤم بشكل كبير لدى بعض المتنورين والمفكرين والعلماء الغربيين[1] وهناك مجموعات أخرىٰ متشائمة أكثر من هؤلاء، وهم أولئك الذين وصلوا إلى مرحلة اليأس من مستقبل البشرية، فهم يقولون إن الطبيعة البشرية (على حد زعمهم) غير قابلة للإصلاح.

وهم يعتقدون كذلك، أن الطبيعة الإنسانية هي نفس الطبيعة الحيوانية، تعبُد الشهوة، أنانية، خدّاعة، كاذبة، ظالمة وغيرها من الصفات الرديئة، وأن بداية الحياة البشرية الاجتماعية كانت مسرحاً للشرّ والفساد، سواءً في مرحلة الإنسان الوحشي، أو في مرحلة الإنسان المتمدن.

وهم يعتقدون أيضاً، أن التمدن والثقافة، لم يغيرا من ماهية الطبيعة الإنسانية، وأن أي شيء لم يستطع أن يغيّر هذه الطبيعة المتدنية لهذا الموجود الذي يسمىٰ بالإنسان، غاية الأمر أن الإنسان البدائي الوحشي لا يختلف عن الإنسان الحاضر المتمدن في الأهداف والتطلعات بل يختلف عنهُ فقط في طريقة العمل، في الأسلوب، في الصورة والمظهر.

فالإنسان البدائي الوحشي، وبحكم بدائيته وعدم امتلاكه للثقافة والمدنية، كان يقوم بتنفيذ جرائمه بشكل صريح وبدون مواربة، ولكن الإنسان المتمدن المُزوّد بثقافة اليوم ينفّذ جرائمه تحت ألف ستار وستار وتحت غطاءٍ من الكلمات الحديثة والألفاظ الرنّانة، في حين أن الأمر هو نفسه؛ حيث لا اختلاف فيما يتحرك ويحرّك ماهية الإنسان الوحشي عن الإنسان المتمدن، في حين ينحصر الاختلاف في الصورة والمظهر. فما هي النتيجة؟ يقولون: النتيجة هي اليأس وقطع الأمل.

---

(١) الأحبة الذين يستمعون (يقرأون) محاضراتي هذه أرجو أن لا يقعوا في الاشتباه فيتصوروا أن ما أنقله من نظريات الآخرين هي نظرياتي، فأنا هنا أنقل نظريات الآخرين.

ولكن ما العمل؟ وما هو الطريق؟ يقولون: الانتحار الجماعي، قتل النفس، ولحسن الحظ فإن أنماط التفكير هذهِ قليلة في أوساطنا، ولو لم يكن لما ذكرت اسمه مطلقاً، ولكن ولأنه قليل، ولعلمي أن مثل هذهِ الأفكار قد تتحرك في أذهان الشباب الجامعيين، ومطالعتي لها في طيّات الكتب، ولذلك فأنا أشير إليها.

والعجيب أنهم يقولون: إن الإنسان الذي وصل إلى مرحلة البلوغ الثقافي يجب أن ينتحر، لماذا؟ وخصوصاً بعد أن يدرك أن الطبيعة البشرية لا ينفع معها علاج فإن من حقهِ أن ينتحر، ومن حقّهِ أن يشجّع الآخرين على الانتحار.

وهذا النوع من التفكير شائع في أوروبا بصورٍ مختلفة، وأن الاحصاءات توضح، تصاعد عمليات الانتحار يوماً بعد يوم على الرغم من الرفاهية الموجودة في العالم المتمدن.

وهذه الاحصاءات والأرقام نقرأها أحياناً في صحفنا ومجلاتنا، حيث نرىٰ ازدياد أرقام الانتحار سنة بعد أخرىٰ.

«فالهيبيز» هذه الظاهرة الاجتماعية، التي تعبّر عن نوع من رد الفعل على التمدن وهذا يعني أن التمدن لم يستطع أن يقدّم شيئاً للإنسان، أي لم يستطع أن يُغيّر الإنسان.

ولا تقارنوا بين الهيبيز في عالم الغرب وبين المتأثرين بالهيبيز عندنا، فالذي عندنا هو تقليد للغرب، وليس فيه أي نوع من الفكر، ولكن هؤلاء الذين أوجدوا الهيبيز في الغرب كانوا ينطلقون في ذلك على أساس فلسفة، وهي فلسفة إظهار التنفّر من التمدّن، هذا التمدّن الذي لم يستطع أن يفعل شيئاً للإنسان، وهذه هي العقدة غير قابلة للحل، وهذه هي المشكلة التي لا تقبل الحل.

ولعلكم على اطّلاع على التقارير التي تتعلق بدراسة أسباب لجوء إلى

ستخدام المواد المخدّرة والتي تُنشر عن طريق اليونسكو، أو أحيانا عن طريق أساتذة الجامعة، وبعض مفكرينا. أن اللجوء إلى استخدام المخدّرات في تلك البلدان يعبّر عن فكرة اليأس وانقطاع الأمل والتشاؤم من مستقبل البشرية.

إن البشر يصل إلى تلك المرحلة عندما يرى أن ليس هناك من حل، فلا الثورة أو الإصلاح استطاعت أن تغير الإنسان، وهو عندما يفكر جيدا يرى أن كل الذي يحصل من تغيير في الأنظمة والنظم الحكومية، والأنظمة الاقتصادية وغير الاقتصادية، فهي إنما تغييرات في الشكل، أما روحها ومعناها فلم يطرأ عليها تغيير، وعندها يقول يجب إذا أن أترك كل ذلك، وهذه واحدة من الفرضيات والنظريات.

المتأثرون بالعلم

وهناك أيضا نظرية أخرى قبل هذه النظرية حيث يمكن القول إنها اليوم لا تملك مؤيدين لها في البلدان المتقدمة، أما في البلدان التابعة لها والتي وصلت إليها النظرية حديثا فلها مؤيدون، وهي الفكرة التي قالها بيكن وغيره والتي تنصّ على أن العلاج الوحيد لكل آلام الإنسان هو العلم.

فهي تقول أقم مدرسة.. وخرّب سجنا، فالبشر يقضي على آلامه ويداوي جراحه بمقدار العلم الذي يحصل عليه، ما هي آلام البشر؟ إنها الجهل، الضعف والعجز في مقابل الطبيعة، المرض والفقر، والخوف والاضطراب، ظلم الإنسان للإنسان طمع الإنسان وحرصه، هذه هي آلام الإنسان، والعلم هو الدواء لكل تلك الآلام.

ولا شك في أن هذه النظرية تحمل جزءاً من الحقيقة، فالعلم يداوي داء الجهل، ويعالج أيضا آلام العجز والضعف والاستكانة في مقابل الطبيعة، وكذلك يعالج آلام الفقر فيما يرتبط بالطبيعة. فهو في هذه النواحي حقٌ وحقيقة، أما أن يكون علاجا لكل الآلام فليس صحيحا، فالذي قلنا إنه

صحيح هو ما يتعلق بعلاقة الإنسان بالطبيعة أما الآلام الناشئة من علاقة الإنسان بالإنسان، مثل الظلم والاضطهاد والطمع، والآلام الناشئة من الطبيعة الذاتية للإنسان، أي الإحساس بالوحدة، والخوف والاضطراب فإن العلم لم يستطع أن يقدم لها حلاً نهائياً.

وبناءً على هذا فإن هذه النظرية التي تقول إن العلم هو الدواء لكل أمراض الإنسان، أصبحت منسوخة في تلك البلدان، أما في البلدان التي تسير على خطى تلك البلدان، فلا زال هناك من الأفراد من يتخيّل أن العلم يستطيع أن يعالج كل الآلام.

ولا يتصور أحدٌ أننا نريد أن نُلغي دور العلم، فكما قلت فإن قسماً ولعل نصف آلام الإنسان ومتاعبه لا يمكن حلها وعلاجها بغير العلم، ولكن للإنسان آلام أخرىٰ، وهي آلامه الإنسانية، أي الآلام المرتبطة بأبعاد إنسانية الإنسان، المرتبطة بمرحلة التكامل المعنوي للإنسان وليس التكامل الآلي أو التكامل الإداري.

فهنا يكون العلم قاصراً، والعلماء عندما يصلون إلىٰ هنا يقولون إن العلم محايد، وأن العلم بالنسبة للإنسان يمتلك قيمة الواسطة، وأن العلم لا يصنع الهدف للإنسان، وأن العلم لا يتعالى بأهداف الإنسان، وأنه لا يعيّن له اتجاهه، بل الإنسان هو الذي يستفيد من الطاقة العلمية في الاتجاه الذي ينتخبه في حياته.

واليوم فإننا نرىٰ أن أكثر الآلام التي يعاني منها الإنسان هي الآلام الناتجة من الإنسان نفسه، وهي بصورة خاصة من الإنسان العالِم وليس من الإنسان الجاهل، ففيما يتعلق بالاستعمار في عالم اليوم وخلال القرون الأخيرة، هل كان الجهلة هم الذين استعمروا الجهلة الآخرين، أو أن الجهلة استعمروا العلماء؟ أم أنهم العلماء الذين استعمروا الناس الآخرين من جهلة وغير جهلة.

إذاً فليست صحيحة الفرضية القائلة بأن العلم والثقافة، بما هو علم

وثقافة تجعل الإنسان مطّلعاً على العالم «وهذا ما أقصده بالثقافة»، هو العلاج الوحيد لكل آلام الإنسان، فالمعرفة أمر ضروريٌّ ولا يستطيع أي شيء آخر أن يحلّ محله، ولكن المعرفة وحدها ليست كافية لمعالجة كل آلام الإنسان.

النظرية الماركسية

وهناك نظرية ثالثة، حيث تقول النظرية، أنه يجب النظر باستهجان للطبيعة البشرية، ولا اليأس من مستقبل البشرية؛ فنقول: لماذا إذاً كان ماضي البشرية هكذا؟ فيقولون: إنكم لم تنجحوا في اكتشاف جذور الآلام البشرية، فالجذور ليست مجرد الجهل والعجز وعدم المعرفة، بل هي الأفكار والأيدلوجيا الحاكمة على الإنسان.

فللإنسان اهتمام آخر غير العلم والمعرفة والصناعة وهذا الاهتمام هو، مسألة العقيدة والأيدلوجية التي تحكم المجتمع، ومن أجل أن يستطيع الإنسان أن يقاوم كل نقاط ضعفه، حتىٰ تلك المرتبطة بأبعاده الإنسانية فلا بدّ إذاً من تغيير عقيدته وأفكاره.

وهؤلاء يعتقدون أن البشر منذ المرحلة التي غادر فيها الاشتراكية الأولى، ومنذ اليوم الذي ظهرت فيه الملكية الفردية، ومنذ اليوم الذي تشكّلت فيه الأيدلوجيا والأفكار على أساس الملكية الفردية والحياة الطبقية، ومنذ اليوم الذي استقرت فيه النظم الاجتماعية على أساس طبقي، فإن الأيدلوجيا الحاكمة على الإنسان كانت قد عززت ظاهرة استغلال الإنسان للإنسان حتى [illegible] قانوناً مشروعاً عند تلك الأيدلوجيا.

[illegible] تلك الحاكمة على البشر، فإن هذا النقص، وسفك الدماء، والحروب، والمنازعات، وقتل الناس سيبقىٰ موجوداً، ولكن إذا ما تبدلت الأيدلوجية الحاكمة على الإنسان، فسوف يزول كل ذلك، وسيتوحّد الجميع ويتساوون ويتآخون، وعندها سيزول الظلم والخوف والاضطراب.

وعند ذلك سيتكامل المجتمع الإنساني بشكل متوازي في أبعاده الفنية

والمادية، وكذلك في أبعاده الإنسانية، وبمقدار ما يحصل من نمو في جسد المجتمع الإنساني فإنه سيحصل نمو يوازيه في روحهِ ومعنوياته أيضاً.

إن الماركسية تعتقد إذاً وعلى أساس هذه النظرية أن جذور كل مآسي الإنسان وآلامه تكمن في الفكر الطبقي والملكية الفردية، وبناءً على هذا فإن المجتمع الذي تكامل ووصل إلى غايته، هو المجتمع غير الطبقي وغير المتناقض.

إن هناك إشكالات كثيرة على هذه النظرية من الناحية العملية.

ومنها: إذا كانت الأيدلوجية مجرد «فكر»، و «فلسفة» فهل بإمكان الفكر المجرد والفلسفة المجردة أن تغيّر طبيعة الإنسان؟ ولماذا لم يستطع العلم أن يُغيّر طبيعة الإنسان؟ لأن العلم مجرد اطلاع ومعرفة.

وما الذي يستطيع أن تفعله الأيدلوجية التي تشكل المعرفة كل عناصرها، أي ليس فيها عنصر الإيمان، في طبيعة الإنسان.

وهل أن الأيدلوجية الحاكمة ناشئة أو نابعة من طبيعة الإنسان الحاكم؟ أم أن الأيدلوجيا، هي التي جعلت من طبيعة الإنسان الحاكم بهذا الشكل؟ وأنتم الذين تقولون بتقدم العين على الذهن فليس بإمكانكم القول إن الطبقة الحاكمة تظلم لهذا السبب وهو لأنها تؤمن بهذه الأيدلوجية، بل تستطيعون القول إنهم أصحاب أيدلوجية ظالمة بسبب أن طبيعتهم طبيعة ظالمة، أي أن حِس البحث عن المنفعة لديهم هو الذي يقتضي ذلك، أي أن الطبيعة البشرية فيها هذه الخصلة وهي أنه يحاول الحصول على المنفعة والربح بمقدار ما تُجيز له الإمكانات ذلك.

إذاً وعلى حد قولكم فإن البحث وراء المنفعة هي التي أوجدت هذهِ الأيدلوجية، وليس الأيدلوجية هي التي خلقت تلك الطبيعة في الإنسان.

فالأيدلوجية إحدى الوسائل والأدوات بيد الإنسان وليس الإنسان أداة بيد الأيدلوجية.

وعلى حد زعمكم فإن هذا الفكر المثالي الذي نقوله وهو: إن الإنسان أداةٌ تحت تصرف فكرهِ، وتحت تصرف الأيدلوجية التي وضعها بنفسه.

وإذا كان الأمر كذلك، فهل إذا تغيرت الأيدلوجية وتجلّت بصورة أخرىٰ في حين أن الإنسان لا يتغير، فهل هذا الطريق مسدود أمام الإنسان حيث يقوم عددٌ من الناس باسم نفس هذه الأيدلوجية الإنسانية والمعادية للطبقية بإيجاد حالات الاستثمارات واستغلال الإنسان للإنسان بواسطة الإنسان نفسه؟.

إن كل ما يقال هو إن الإنسان يتجلىٰ بطبيعته مهما تغيّر الشكل والنظام، ثم يحوّل ذلك النظام إلى أداة بيده، ومن أين يمكن ضمانة أن لا يحدث هذا؟ وهل أن الإنسان يملك حريته في البلدان التي تتبع مثل هذهِ الأيدلوجية؟.

فهناك التساوي موجود ولكن ليس في السعادة إذا لم نقل أنه تساوٍ في التعاسة وسوء الحظ.

فهناك طبقات، ولكن ليس على شكل طبقية اقتصادية، بل من بين مائتي مليون نسمة هناك عشرة ملايين يسيطرون على شيء باسم الحزب الشيوعي، فلماذا إذاً لا يسمحون للمئة والتسعين مليون الباقين لكي يكونوا شيوعيين؟ خصوصاً وأنهم إذا سمحوا بذلك فستضيع منهم كل الامتيازات.

لقد حصلت أكثر المضايقات والمآسي والمِحن باسم الأيدلوجية المعادية للطبقية، فقد وُلدت طبقة جديدة ولكن ليس باسم الطبقة، وهذا بسبب أن الفكر ما دام مجرد فكرٍ والفلسفة ما دامت مجرد فلسفة، ترتبط بجهاز الذهن والإدراك، ومرتبطة بالمعرفة البشرية لا تستطيع أن تؤثر في الطبيعة البشرية.

فالمعرفة تُنير الطريق فقط حيث يستطيع الإنسان من خلالها وبشكل أفضل تشخيص مصالحه، وأن يكون أفق تفكيره أوسع وأبعد، ولكن المعرفة

لا ترتفع بالأهداف إلى الأعلى مطلقاً، فعندما يتحرك في داخلي أو طبيعتي هدف أعلى فكيف أستطيع أن أجده؟ ثم، ألستم أنتم القائلون إن الفكر ليس فيه أي أصالة للإنسان؟ وعندما لا يمثل الفكر أي أصالة، فإنه لن يستطيع أن يسيطر على الإنسان.

النظرية الوجودية:

وهناك فلسفة أخرىٰ ظهرت باسم الوجودية، وهي تشبه النظرية المادية في رؤيتها إلى الكون والإنسان، فالمادية تتصور، أما هؤلاء فقد قدّموا نظرية من أجل تلافي النقص الموجود في الماركسية وهي مسألة «الرغبة»، لأن الماركسية ترىٰ أن القيم الإنسانية، والمعاني والمفاهيم الأخلاقية مثل السلام، والعدالة، هي مفاهيم مثالية لا قيمة لها.

ولكن الوجوديون التصقوا بالقيم الإنسانية، من أجل أن يتمكنوا أن يخلقوا عند الإنسان مبدأ يرغب به، وليس فقط مبدأ المعرفة والفكر، بل شيئاً ينجذب نحوه ويستطيع أن يحدد للإنسان هدفاً أعلىٰ غير الأهداف المادية.

ومن هنا كان اعتمادهم على القيم الإنسانية وعلى الشيء الذي سميّت به الإنسانية بهذا الاسم، وهذه القيم لم يعتبروها بلا قيمة عن إجبار أو دون أساس.

ولكن يجب أن نسأل؛ إذا كنتم تقولون إن الكون يتكون من المادة، وأن كل الوجود ليس سوى المادة وتفاعلاتها، إذاً فكيف تضمرون هذه القيم الإنسانية في العالم المادي؟ لنأخذ الإنسان مثلاً، فما هو الإنسان وفق هذهِ الفلسفة؟ فالإنسان ليس سوىٰ هذا الجسم الواقعي، وهو تركيب مادي، والشيء الذي يستطيع أن يرتبط بهذا التركيب المادي هو الربح والمنفعة، وذلك هو الشيء الذي له حقيقة.

فإذا كنت أنا حقيقة مادية وليس في واقعي وتركيبي سوى المادة، فلن تكون علاقتي مع العالم الخارجي سوى علاقة مادية، وعليَّ أن أسعىٰ وراء

شيء له وجود مادية. وعندما نسأل، فما معنىٰ وجود القيم الإنسانية مثل التضحية، فهو عندما يُقدم على التضحية فهو يجسّد في نفسه القيم الإنسانية؟ فإنهم يقولون: إن تلك القيم لا وجود لها ولكن الإنسان وبحكم كونه موجوداً ذا إرادة، فإنه هو الذي يخلق تلك القيم.

القيم لا وجود لها، ليس لها وجود ماديّ عينيّ، وليس لها واقع في العالم الخارجي حتىٰ أصل إلى ذلك الواقع، مثل هذا المخزن المادي العظيم إلى أين يستطيع الوصول؟.

وصول هذا المخزن المادي العظيم هو أن يتحرك من جدار هذه القاعة ليصل إلى الجدار الآخر من القاعة، إذاً فإن وصولي إلى أمرٍ ليس له أي مفهومٍ ماديّ لا معنىٰ له.

إنهم إذاً يقولون بإن القيم ليس لها وجود واقعي، ولكننا نحن الذين نمنح لها قيمة وواقعية، فالإنسان هو الذي يختلق القيم، وهذا الكلام من أكثر الكلام مدعاة للسخرية والضحك، ويجب أن نقول لهؤلاء ما معنىٰ قولكم إننا نخلق القيم، وإننا بهذا العمل نمنح قيمة لهذا الوجود، وهذه التضحية، وهذه الخدمة؟.

هل يعني أنكم تريدون منح القيم وجوداً عينياً؟ وهذا مثل أن أقول لهذا الميكروفون الحديدي، أيها الميكروفون إنني أمنحك قيمة الذهب، فهل يتحول الحديد بهذا القول إلى ذهب، الحديد حديدٌ، أو أن أقول: أيها الخشب؛ إنني أمنحك خصائص الفضة، فإنني لو بقيت العمر كله أقول للخشب أنت فضة فإنه لن يكون كذلك لأن الخشب خشبٌ لا تتبدل ولا تتغير واقعيتُه، فهل يستطيع الإنسان أن يفعل ذلك.

إذاً فإن خلق القيم بمعنىٰ جعلها واقعية لا معنىٰ له، نعم، جعل القيم، ذات واقعية اعتبارية، لها معنىٰ، فكيف؟ أي أنني أفترض أن شيئاً ما هو شيء آخر، فالإنسان يستطيع أن يستفيد من الأمور الاعتبارية والاتفاقيات على أساس أنها وسيلة فقط، وعلى سبيل المثال لنفرض أن شخصاً جاء إلى إيران

من بلد آخر، فإننا نستطيع وحسب الاتفاق أن نمنحهُ الإيرانية وأن نعطيه الجنسية الإيرانية، ويصبح حسب الاتفاق جزءاً منّا، بحيث يستطيع الاستفادة من كل الحقوق التي يستفيد منها أبناء البلاد. مثل هذا الاتفاق يعتبر وسيلة، وهو أمرٌ اعتباريٌ، وهو يملك قيمة محددة بكونه وسيلة لأمرٍ عينيّ، ولكن الأمر الاعتباري لا يستطيع أن يكون هدفاً للإنسان، مثل الإنسان سواء كان رجلاً أو امرأة الذي رغب بأن يكون زوجه جميلاً، ولكنه كانت له زوجة قبيحة ولكنه يقول مثلاً، أنا أعتبرك جميلة ثم يحبّها كما لو أنها كانت جميلة، فمثل هٰذا الشيء لا يمكن حدوثه، فهل مثل عمل عُبّاد الأصنام، فهم يخلقون الصنم ثم يعبدونه: «أتعبدون ما تنحتون»..

فالإنسان لا يستطيع أن يفترض لنفسه شيئاً ما علىٰ أنه هدف، فقيمة الأمر الاعتباري هي في حدود كونه وسيلة وواسطة، ولهذا فإن مقولة إن الإنسان هو الذي يخلق القيم لنفسه في أكثر المسائل وهمية، فكيف يمكن أن يفترض الإنسان أن شيئاً ما هو هدفه ثم يتحول هذا الأمر بعد ذلك إلى هدف واقعي.

لقد كان المرحوم السيد محمد باقر حجة الإسلام الذي يسكن أصفهان وفيها مسجد معروف باسمه، عالماً تقيّاً ورعاً، وكان يعتقد بضرورة أن يقوم المجتهد بنفسه بإجراء الحدود وكان قد أجرىٰ الحدود، فمثلاً إذا ثبت لديه أن شخصاً ما قتل شخصاً آخراً ويجب أن يُعدم، فإنه كان ينفذ فيه حكم القصاص، وإذا ثبت قيام أحدهم بالزنا أو اللواط أو شرب الخمر فإنه كان ينفذ الحكم بنفسه، وكان الناس متعطشون في ذلك الوقت لمثل هذا الأمر، وقد منحه ذلك حبّ الناس وتعلقهم به، حتىٰ أصبح قوّة تخشىٰ في منطقته بل في جنوب إيران أيضاً، ولم يكن له نظير من بين علماء الإسلام، ويروى أن شخصاً جاهلاً لا يعرف القراءة، ولا التقوىٰ، افتتح أمام منزل السيد دكّاناً، وكان المترددون على الدكّان يتحدثون عن السيد وعن إجرائه للحدود، فقال هذا الرجل الجاهل لأصحابه، اجلبوا لنا شخصاً لنُجري عليه الحدّ، فقالوا إن الأمر ليس كذلك، وإنما يتم على الصورة التالية وهي أن السيد يجلس في بيته

فيأتيه أحد الناس يشكو إليه فيقول له مثلاً أن بيتي قد سُرق، ثم يأتي الشهود، فيوضحون بالأدلة والشواهد، ثم عندما يثبت عن السيد شرعاً أن فلاناً من الناس هو السارق يُقيم عليه الحد، فكيف نذهب نحن ونجلب أحد الأشخاص ثم نقيم عليه الحد؟ فقال لا ضير في ذلك، اجلبوا الشخص لنمارس معه عملاً شنيعاً ثم نُجري عليه الحد. القيم التي يخلقونها ثم يعبدونها، وهذا لا يمكن.

النظرية الإسلامية

أولاً فإن خاتم الأديان لا ينظر إلى الماضي بمثل هذه النظرة التشاؤمية، ولا ينظر إلى الطبيعة البشرية بمثل تلك النظرة كذلك، فهذا الدين يقول: إن عقيدة البشر اليوم حول الطبيعة البشرية وأنها مبنيّة على أساس الشر والسوء هي نفس عقيدة الملائكة غير الصحيحة عن الإنسان والتي ردّها الله سبحانه وتعالى، انظروا إلى الحقائق التي يذكرها القرآن قبل خلق الإنسان ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ في الأرض خليفة** ﴾[1]، ولكن الملائكة الذين كانوا على عِلم بالطبيعة الحيوانية للبشر لأي سبب كان، أو لسبب معرفتهم للبشر قبل إنساننا هذا أو لأسباب أخرىٰ قالوا ﴿ **أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ** ﴾[2]، ﴿ **ونحن نُسَبِّحُ بحمدك ونُقَدِّسُ لكَ** ﴾[3]، فماذا كان جواب الله عز وجل لهم ﴿ **إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُون** ﴾. وهذا التعبير القرآني عجيبٌ! فربّ الإنسان أجاب على الذين اعترضوا على الطبيعة الحيوانية للإنسان بأنهم لا يعلمون فالله يقول لهم إنكم لا تعرفون الإنسان، وأنا وحدي أعلم ما أخلق، فأنتم رأيتم النزعات الحيوانية والطبيعية في الإنسان، ولم تقرأوا الوجه الثاني للعملة، ولم تعرفوا النزعات المعنوية والإلهية عند الإنسان، ولم

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠.
(٢) سورة البقرة الآية ٣٠.
(٣) سورة البقرة الآية ٣٠.

تطلعوا على الفطرة الإنسانية فقد وضعت في هذا الإنسان فطرة تنزع به نحو التعالي بذاته وبطبيعته، وأن الفكر الذي آتيه لهذا الإنسان، هو فكر تقوم إحدى أركانه على هذا النزوع الفطري والطبيعي، فقد وضعت في طبيعة هذا الإنسان بذور طلب الحق والبحث عن الحقيقة وطلب العدالة والحرية و. . . ، فليس كله أنانية وحيوانية ومنافع طبقية، وليس كله ظلم وقوة، فهو موجود مركّب من النور والظلمة، ونفس تركيبه من هاتين الحقيقتين فإنه أصبح أفضل الموجودات، ابتداءً منكم أيها الملائكة إلى ما دونكم.

وهل تستطيع الأيدلوجية المجردة على حد زعمهم والتي تهتم بمصلحة مجموعة من الناس على حد زعمهم، أن تقود الإنسان، أو هل تستطيع الأيدلوجية التي هي مجرد فكر وفلسفة بعيدة عن فهم النوازع المعنوية للإنسان والتي لا تملك اطلاعاً على واقع الإنسان، أن تكون فائدة للإنسان، ومعلمة له، ومربيّة له على القيم العليا؟.

أو ذلك الذي يدّعي أن ليس في ذات الإنسان أي شيء، وليست له أية نوازع، وليس هناك أي معنىٰ للتعالي عنده، وأنه موجود مادي محض، ولكنه فيما بعد أخذ يخلق لنفسه قيماً، ثم تحول لعبادته في المرحلة اللاحقة، وهذا كلام لا أهمية له.

يجب ان يعرفوا الإنسان بنفسه.

أيها الإنسان اعرف نفسك.

أيها الإنسان علّم نفسك جيداً.

أيها الإنسان ربّي نفسك.

أيها الإنسان اعرف هدفك، واعرف كيف تحقق لنفسك التكامل.

إنه لمن الظلم للإنسانية أن تعتقد أن كل الجهود والأتعاب التي بذلها البشر السابقون كانت من أجل تحقيق بعض المصالح الفردية أو لمجموعة أو لجنسية معينة.

لأن الإنسان تكمن في داخله طبيعتان إحداهما متعالية والأخرىٰ متسافلة وهما على الدوام في حالة من الصراع والجهاد.

فهؤلاء الذين استطاعت الطبيعة المتعالية في داخلهم أن تسيطر بصورة عادلة على طبيعتهم المتسافلة، هم دائماً يشكّلون مجموعة تنصر الحق، والحقيقة والعدالة، والذين انهزموا في هذا الصراع يشكلون دائماً مجموعة الرذائل والشر.

وبحسب التعبير القرآني، فإن أعظم مواجهات وصراعات الإنسان هي الصراعات بين أهل الحق وأهل الباطل، إنه الصراع بين الإنسان المتحرر من أسر طبيعته الحيوانية، وأسر الطبيعة الخارجية وأسر الآخرين أنه الصراع بين الإنسان المؤمن من العقائدي والهادف، والإنسان الذي يستند على العقيدة والإيمان، وبين الإنسان المصلحي المنحط.

انظروا إلى القرآن كيف يصور بداية الصراع بين البشر ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحقِّ إذ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَلَم يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إنَّما يَتَقبَّلُ اللَّهُ مِنَ المُتَّقين. لَئِنْ بَسَطْتَ إليَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَني ما أَنَا بِبَاسِطٍ يَدي إليك لأَقْتُلَكَ إني أخاف الله ربَّ العالمين إني أُريدُ أن تبوءَ بإثمي وإثمكَ فتكُونَ من أصحاب النَّارِ وذلِكَ جزؤا الظالمينَ فطوَّعتْ له نفسُهُ قتلَ أخيه** ﴾[1].

وهكذا فإن الصراع والحرب تبدأ من قابيل وهابيل، إذ كان أحدهما صاحب عقيدة وهدف، بين إنسان باحثٍ عن الحق وطالب حقٍ محبٍّ للعدالة ومُطهرٌ من النزعات المادية، وبين إنسان آخر منحطٌ حيواني، قال حديثه هو الله والتقوىٰ، وأن العمل يتقبله الله إذا كان مبنياً على أساس التقوىٰ، إنسان يقول لذلك الآخر، إن مددت إلي يدك لتقتلني فإنني لن أكون كذلك (إذاً فليس القتل من طبيعة الإنسان) ويقول القرآن عن ذلك القاتل ﴿ **فطوّعت له**

---

(١) سورة المائدة الآيات (٢٧ ـ ٣٠).

نفسه قتلَ أخيه ﴾ فهو أسير نفسه الأمارة بالسوء.

إن قصة هابيل وقابيل في القرآن الكريم لهي من أروع وأعظم القصص، حيث يوضح فيه القرآن نظرته للإنسان، وكيف يتخلص الإنسان العقائدي المؤمن والحر من أسر الماديات والطبيعة، فهو عقائدي يتعلق بالمثل العليا، وكيف يصمد في سبيل عقيدته، وكيف أن الإنسان الآخر تدفعه نوازعه الشريرة نحو الأسفل.

إن صراع هابيل وقابيل ليس كما يتصور البعض من أنه تجسيد للصراعات الطبقية للإنسانية، فهذا كلام من يتأثر بماركس، فهذا الصراع هو أعظم صراع ومظهر يوضحه القرآن الكريم.

إن القرآن الكريم في بيانه التاريخي، يوضح دور المستضعفين من جهة، كما يوضح دور «الملأ» و «المترفين» من جهة أخرىٰ، ولكنه يسعىٰ دائماً ليفسر هذا الصراع، على أنه صراع بين الإنسان العقائدي وبين الإنسان المصلحي النفعي.

وقد أوضحت في كتاب ثورة الإمام المهدي (ع) هذا الموضوع.

ومن وجهة نظر القرآن، فإن المجتمع مثل الإنسان فيه تيّارين، فهناك قسم من الناس يمثّلون تيار العقيدة والهدفية والقيم والمُثل، وهناك قسم من الناس يمثلون تيار الانحطاط والحيوانية.

وكم هو جميل قول المولوي:

في العروق ماء حلو وماء مر.

وهو هكذا في البشر حتىٰ القيامة.

فالمصرع الأول يقول، إن في بناء المجتمع يوجد الماء الحلو وهو يرمز إلى الخير والماء المالح وهو يرمز إلى الشر، وفي المصرع الثاني حيث ترد عليه بعض الانتقادات يقول إن هذا الأمر مستمر في البشر حتىٰ يوم القيامة، حيث إن الحياة كلما تقدمت بالبشر فسوف يكون هناك

نظام أفضل.

هذهِ العقيدة، ترىٰ، أن في طبيعة البشر توجد الرغبة في الحق، عقيدة تؤمن بوجود القيم المعنوية، وليست مثل الماركسية التي تلغي القيم الإنسانية، حيث تعتبرها من القضايا الخيالية والمثالية.

وكذلك فإن هذه العقيدة ترىٰ في ذلك نوعاً من النوازع، ولكنها ليست نزوعاً من قبيل الاتفاقية أو أنها مخلوقة من قبل الإنسان، بل هي نزوع نحو الحقائق التي يمكن اكتشافها.

أيها الإنسان! اعرف نفسك، وافهم واقعك، هذه القيم مستقرّة في داخلك، لأنها موجودة في هذا الكون العظيم، وأنك نموذج لهذا الكون العظيم، «تخلّقوا بأخلاق الله»، فتلك هي الصفات الإلهية، وقد خلقت في وجودك جزءاً من الصفات الإلهية، فاكتشفها.

وبناءً على هذا فإن مستقبل الإنسان، كيف سيكون؟ هل نقول مثل ما قالته الملائكة عن الإنسان من أنه ذو طبيعة منحطّة، وأن نيأس من هذا المستقبل، ونقول كلاماً منمقاً تافهاً مثل الانتحار والهيبيز واللجوء إلى المخدرات و...؟ أم ننتظر المعجزة تأتينا عن طريق الأيدلوجيا التي تحمل صفة وحيدة وهو كونها غير طبقية، مع وجود مئات الإشكالات عليها؟.

ومن الإشكالات عليها ما قلته سابقاً؛ وهو: أن عقيدتك تقول إن الحركة ناتجة عن التناقض، ولولا التناقض لما كانت الحركة، إذاً إذا وصلنا إلى المجتمع الذي ينعدم فيه التناقض فهذا يعني أننا وصلنا إلى المجتمع العديم الحركة والعديم الهدف، إلى المجتمع الساكن، إلىٰ المجتمع الميت، فهل غاية ومنتهى تكامل الإنسان هو أن يصل إلى التوقّف والسكون؟ يصل إلى محطة؟ أم أن التكامل مسألة أكبر من مسألة التناقض؟.

إن الإنسان بعد أن يحلّ مشكلة التناقض، فإن أصل «فاستبقوا الخيرات» يلوح أمام عينيه، أي أن الإنسان في الوقت الذي يقضي فيه على التناقض الطبقي، فإنه يكون قد وصل توّاً إلى مرحلة سدّ النواقص في نفسه،

وهذا أول الطريق، وابتداء سيره الصعودي حيث يجب أن يذهب. وهذا السير لا نهاية له، فمهما صعد إلى الأعلى فهناك في الوجود ما يمكنه الصعود أكثر، فلو كان النبي في صعود أبدي، فأمامه مجال للصعود أكثر، منتهى الأمر أن ذلك بالنسبة لنا غير ممكن التصور، ولكن الواقع هو ذلك.

وهذا هو المجتمع الإنساني المثالي النموذجي لأن المجتمع في مثل هذهِ الحالة يكون مجتمعاً عقائدياً هادفاً، مجتمعاً إنسانياً متفوقاً ومنتصراً على الإنسان النفعي الباحث عن المصلحة الخاصة.

وفي الحقيقة يجب أن نقول إن النصر والتفوق، هو نصرٌ للعدالة والصلاح والتقوىٰ، انتصار إحدى وجوه العملة الإنسانية على الوجه الآخر، وبتعبير القرآن انتصار حزب الله على حزب الشيطان، وبسبب أن الإنسان خُلِق وهو يملك العقل والحرية والاختيار وأنه مسؤول ومُريد، فإن أول إنسان وصل إلىٰ مقام الإنسانية كان حجة لله.

أي من غير الممكن أن يأتي إنسان إلىٰ هذه الدنيا وأن لا يكون حجة بعد أن تشخصت مسؤوليته، إذاً فإن للإنسان مثل هذا المستقبل ومثل هذا المقصد، المقصد في أن يعرف ذاته، والنصر النهائي على الأباطيل، ودفع الجوانب الإنسانية الفطرية نحو الطاعة.

وكذلك استمرار صراع الحق ضد الباطل ودفعه نحو الأمام حتىٰ يتحقق ما أخبر به أولياء الله في نهاية الأمر، وهو قيام دولة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف[1].

وبناءً على هذا فإن مسألة تكامل الإنسان في أبعاده الإنسانية لم تصل بعدُ إلى الطريق المسدود.

---

(١) لقد ذكرت في كتاب ثورة المهدي (ع) وبصورة مجملة عشرة من علاماته، ولكن في نيّتي أن أذكر جميع العلامات في كتاب آخر تحت عنوان «المجتمع المثالي الإسلامي».

والدين جاء من أجل ذلك، لأن الدين أيدلوجية تعتمد على الطبيعة الروحية للإنسان، أي على معرفة الإنسان، باطلاع الإنسان على هذه الطبيعة وتربيته لهذا الجانب، وإيجاد التوازن بين طرفي الإنسان، العلوي والسفلي.

إن للعبادات، والأسرار، والحاجات، ومعرفة الله، وتجنب المعصية، والكذب، والخيانة، والظلم والاضطهاد، والغيبة بالإضافة إلى بُعدها الاجتماعي فهي ذات أبعاد تربوية وإنسانية أي لإحياء الجانب الإنساني في الإنسان. فإذا أردنا إذاً أن ننقل خطواتنا على طريق تكامل الإنسان، فيجب أن نضع أنفسنا فوق كل تلك المسائل، أي أن ننظر للإنسان على أنه مستودع للعقيدة يتسامى فوق الطبقية وأمثال ذلك.

إن صراع الإنسان يمكن أن يكون ذا طابع عقائدي مئة بالمئة، وأن يكون ذا طابع إيماني، ولكن من أين يبدأ هذا الصراع؟ من داخلك، وهذا الأمر تجده فقط في تعليمات الأنبياء، ولكن لن تجد مثلك ذلك في تعليمات غير الأنبياء. أرسل رسول الله (ص) جيشاً لمقاتلة بعض الأعداء الخارجيين، وعند عودة الجيش منتصراً يذهب رسول الله لاستقباله، وهناك خاطب الجيش «**مرحباً بقومٍ قضوا الجهاد الأصغَرَ وبقي عليهم الجهاد الأكبر**...».

وقد تعجب الجميع من قول الرسول (ص) فقالوا: يا رسول الله وهل بقي علينا قتال أكبر من ذلك؟ فأوضح الرسول (ص) أن أمامهم جهاد أكبر وهو جهاد النفس.

هذه المعرفة حول الإنسان، جهاد النفس، حيث يقول القرآن ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وقد خابَ من دَسَّاهَا** ﴾[1] لن تجدها في أي تعليمات أخرىٰ.

* * *

(١) سورة الشمس الآيتان ٨ و ٩.

سؤال وجواب

س: إن صادق هدايت الذي انتحر، رأىٰ حقيقة مجتمعة، وطرح الشيء الذي رآه.

ج: إن صادق هدايت، أهان مجتمعنا والمجتمعات الإنسانية، وهذا هو منطق الملائكة الذي تلخّص بالاعتراض على خلقة الإنسان، وهو ما تعرّضت له فيما تقدّم.

فهؤلاء توجهوا فقط نحو المفاسد والشرور في مجتمعهم، ولم يتوجهوا نحو الخير والجمال. وأن الرؤية من جانب واحد خطأ.

والرؤية الصحيحة لمجتمع ما هي أن تكون خالية من أي نوع من الحب والكراهية، رؤية الخبير تتم على هذه الصورة وكذلك المساوىء في أي مجتمع.

فإذا رأينا المساوىء فقط ولم نرىٰ المحاسن ونتيجة لذلك ننكر وجودها (المحاسن) فإن ذلك نوعٌ من الخيانة للمجتمع التي تتطور شيئاً فشيئاً إلى خيانة للنفس، وعندما يُلقّن الإنسان نفسه دائماً بأنه ليس هناك سوى الشر، والفساد، والسوء، فإنه ينحدر إلى اليأس وقطع الأمل والانتحار.

وسأوضح هذا الأمر أيضاً: هناك بعض الناس لا يوجد في داخلهم أي بصيص من نور أو أي لمسةٍ من خير، ولأن أكثر الناس ينظرون إلىٰ الدنيا من

خلال منظارهم هم، ولأن أكثرهم ينظرون إلى أنفسهم، لذا فإنهم يتصورون أن مجتمعهم ليس فيه أي خير، وإلا فإن الإنسان إذا كان في وجوده خصلة من الخير، فليس هناك من سبب يدعوه لكي يقول إن ليس هناك أحداً يملك مثلها.

ولكن عندما تنعدم في داخله كل جنبة من الخير فإنه يتصور عدم وجودها في كل أحد.

س: إذا كان المجتمع البشري يسير بنفسه نحو التكامل، فما هي الحاجة للمهدي (ع)؟.

ج: إن الخطأ الذي وقع في مجتمعنا هو أن الأغلبية يتصورون أن ظهور الحجة (ع) ذو طبيعة انفجارية، وهذا التصور نتيجة لرؤية متشائمة، فأصحاب هذه النظرة ينظرون إلى الجانب المتشائم في وسط الأخبار والروايات ويتصورون أن البشرية عندما تصل إلى منتهىٰ الظلم والظلام بحيث ينعدم وجود أهل الحق والحقيقة، تنفجر هذه البشرية فجأة ليظهر الحجة (ع). في حين أن الأمر ليس كذلك، بل إنه (ع) هو آخر حلقة من حلقات الصراع الإنساني وقد ذكرت الشواهد على ذلك من الكتاب والروايات (في كتاب ثورة المهدي (ع)).

وبناءً على هذا فإنه (ع) يقوم بالعمل لا على أساس أن الإنسان قد ترك العمل، وأنه قوّة فوق الإنسان يعمل بدلاً عنه، بل إنه يفعل ذلك على أساس مساعدة الإنسان.

س: لقد قلتم، إن قولهم: بأن العلم يستطيع أن يكون علاجاً لجميع آلام الإنسان فيما يتعلق بعلاقة الإنسان بالطبيعة، صحيح، ولكنه غير صحيح فيما يتعلق برابطة الإنسان مع الإنسان، فهل بنظركم أن الشعوب المُستَعمرة قد وصلت إلى هذا المستوىٰ من العلم ولم يستطيعوا أيضاً إنقاذ أنفسهم؟.

ج: ما يقصده هو أن ذنب الإنسان المُستَعمَرْ هو جهله، إذاً وبناءً على ذلك فإن بإمكان العلم أن يوجد العلاج. لقد كنت منتبهاً إلى هذه النقطة.

وهذا المطلب يؤدي رأيي. لقد كان حديثي حول هل أن العلم يغيّر ماهيّة الإنسان أم لا؟.

ومعنىٰ تغيير العلم لماهيّة الإنسان في هذا المورد هو، أن العلم يغيّر ماهية الإنسان المُستَعمِرْ، ويكون مانعاً من أن يكون المستَعمِر مُستَعمراً، ومعنىٰ كلامك هو أن المُستَعمَرْ ليس عالِماً.

فهو يجب أن يكون عالماً ويستفيد من العلم كأداة لتحقيق أهدافه.

وأن المُستَعمِر وبسبب كونه عالماً فإنه استفاد من العلم كأداة لتحقيق أهدافه. وليس لي كلام في أن العلم يستخدم كأداة وأن المُستَعمَر لو كان عالماً لاستطاع أن يستفيد من العلم كأداة، ولكن كلامي هو هل أن العلم يغير ماهية الشخص العالم أم لا؟ وقد قلنا إنه لا يغيّرها.

س: في قصة هابيل وقابيل يقول القرآن: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إليَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَني ما أَنَا بباسِطٍ يَدِيَ إلَيْكَ لأَقْتُلَكَ﴾ فهل معنىٰ ذلك أنه لا يريد الدفاع عن نفسه؟.

ج: كلا، ولذلك لم يقل القرآن لئن بسطت إليَّ يدك لأقتلك فإني لن أمنعك عن قتلي، إنه يريد القول: إنك إذا أردت قتلي، فإنني لا أريد قتلك، وهو بالنسبة لكليهما بحث في القتل الابتدائي وليس في مسألة الدفاع عن النفس، ولذلك كان التعبير القرآني بالشكل الذي مرّ.

ونظير ذلك ما قاله أمير المؤمنين (ع) عندما أشار إلى أنه يعرف ويرىٰ قاتله، فقالوا له اقتله إذاً، فقال إن هذا قصاصٌ قبل الجناية. وإذا قتلته قبل أن يقتلني فإنني أكون قاتلاً ابتدائياً.

والأمر هنا كذلك أيضاً ومعناه إذا كنت أنت قاتلي، فإني لستُ قاتلك.

س: جاء في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿إني جاعلٌ في الأرض خليفة﴾ فما معنى الخليفة، أو ما هو المقصود بالخليفة؟.

ج: الخليفة هنا يعني، الممثل، ولكن أي ممثل؟ أي أنني أريد أن

أخلق موجوداً توجد فيه الصفات الإلهية، لأن هناك قاعدة مسلمة في الاستخلاف وإعطاء حق التمثيل، أي إذا كان إنسانٌ ما يحتلّ موقعاً معيّناً، وأراد آن يعين خليفة له فإنه ينتخب شخصاً تتوفر فيه صفات شبيهة به.

انتهى

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المترجم	٥
القسم الأول: هدف الحياة	٩
المحاضرة الأولى: هدف الخلقة وبعثة الأنبياء	١١
ـ مقدمة	١٣
ـ النظريات المختلفة حول سعادة الإنسان	١٦
١ ـ القوة في العلم والإرادة	١٦
٢ ـ الاستفادة أكثر من مواهب الطبيعة	١٦
ـ هدف الخلقة من خلال القرآن الكريم	١٧
ـ العدالة الاجتماعية، هدف آخر لبعثة الأنبياء	٢٠
ـ الله فقط الذي يمنح السعادة البشرية	٢٤
المحاضرة الثانية: جذور الأخلاق الفردية والاجتماعية	٢٧
ـ الآراء المختلفة حول جذور الأخلاق الاجتماعية	٢٩
١ ـ نظرية راسل: مصلحة الفرد	٢٩
الرد على النظرية	٣٠
٢ ـ إلغاء الملكية الفردية	٣٢
الرد على النظرية	٣٣

ـ حاجة المجتمع إلى القيم المعنوية ٣٦
ـ مفهوم القيمة ٣٧
ـ علاقة القيم المعنوية بالإيمان بالله ٣٨
ـ المسؤولية قيمة معنوية في المدرسة الإنسانية ٣٨
ـ الرد على النظرية ٤٠
ـ هل يمكن أن يكون الضمير جذراً للمعنوية؟ ٤١
ـ الاعتقاد بوجود الحكمة في الخلقة أصل الإيمان
بالقيم المعنوية ٤٥

المحاضرة الثالثة: العقيدة والرؤية الكونية ٤٩
ـ حاجة الأيدلوجيا إلى الأساس الفلسفي والأساس
الإيماني أيضاً ٥٣
ـ التوحيد أساس للرؤية العالمية وكذلك للهدف ٥٤
ـ الماركسية بنفسها ليست هدفاً ٥٥
ـ الوجودية لا تستطيع خلق الالتزام ٥٦
ـ رؤية العالم التوحيدية ٥٨

المحاضرة الرابعة: الإيمان وكمال الإنسان ٦١
ـ أين يكمن كمال الإنسان ٦٤
ـ النظريات المختلفة حول الإنسان الكامل ٦٥
١ ـ الإنسان الكامل هو الإنسان المستثمر ٦٥
أ ـ المستثمر للطبيعة ٦٥
الرد على هذه النظرية ٦٥
ب ـ الإنسان الكامل هو الإنسان المنتفع في الآخرة ٦٦
الرد على هذه النظرية ٦٧
٢ ـ نظرية العارفين ٦٨
٣ ـ نظرية الحكماء والفلاسفة الالهيين ٧١

٤ ـ نظرية الهنود ٧٤
٥ ـ كمال الإنسان في الجمال ٧٤
٦ ـ كمال الانسان في القدرة ٧٥

المحاضرة الخامسة: دراسة النظريات المختلفة عن كمال الإنسان
على ضوء النظرية الإسلامية ٧٧
ـ نظرية العرفانيين من خلال الرؤية الإسلامية ٨٤
ـ نظرية الحكماء من خلال رؤية الإسلام ٨٥
ـ المحبة في الإسلام ٨٦
ـ مسألة العبادة ٨٧
ـ أقسام العبادة ٨٧
ـ الهدف الأصلي في الإسلام ٩٠

القسم الثاني: مفهوم التكامل ٩٣

المحاضرة الأولى: مفهوم التكامل والتكامل الاجتماعي
للإنسان في الماضي ٩٥
ـ ما هو التكامل؟ ٩٩
ـ مسألة باسم البداء ١٠٢
ـ التكامل الاجتماعي في الماضي ١٠٣
ـ علاقات الناس مع بعضهم ١٠٦
المثال الأول: السرعة ١٠٧
المثال الثاني: وسائل الارتباط العامة ١٠٩
ـ علاقة الإنسان بنفسه ١١٠
ـ دور الأنبياء والدين في تكامل التاريخ ١١١
ـ سؤال وجواب ١١٣

المحاضرة الثانية: مستقبل البشرية من خلال نظريات مختلفة ١١٧

ـ التشاؤم واليأس من طبيعة البشر ومستقبل البشرية ١١٩
ـ المتأثرون بالعلم ١٢٢
ـ النظرية الماركسية ١٢٤
ـ النظرية الوجودية ١٢٧
ـ النظرية الإسلامية ١٣٠
ـ سؤال وجواب ١٣٧
ـ الفهرس ١٤١

مرتضى مطهري

التكامل الاجتماعي للإنسان

هاتف ٠١ ٥٥٠٤٨٧ · ٠٣ ٨٩٦٣٢٩ · فاكس ٠١ ٥٤١١٩٩ · ص.ب ٢٨٦/٢٥ غبيري بيروت لبنان
Tel.:03/896329-01/550487 - Fax:541199 - p.o.Box:286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com URL: http: //www. daralhadi.com